

كتب الفراشة - القِصص العالميّة

شيرلي



كتب الفراشة - القِصص العالميّة

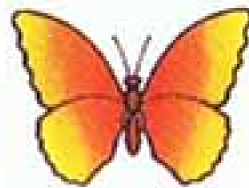
شيرلي



تأليف : شارلوت برونتي

ترجَمَة : زينَه ديَاب

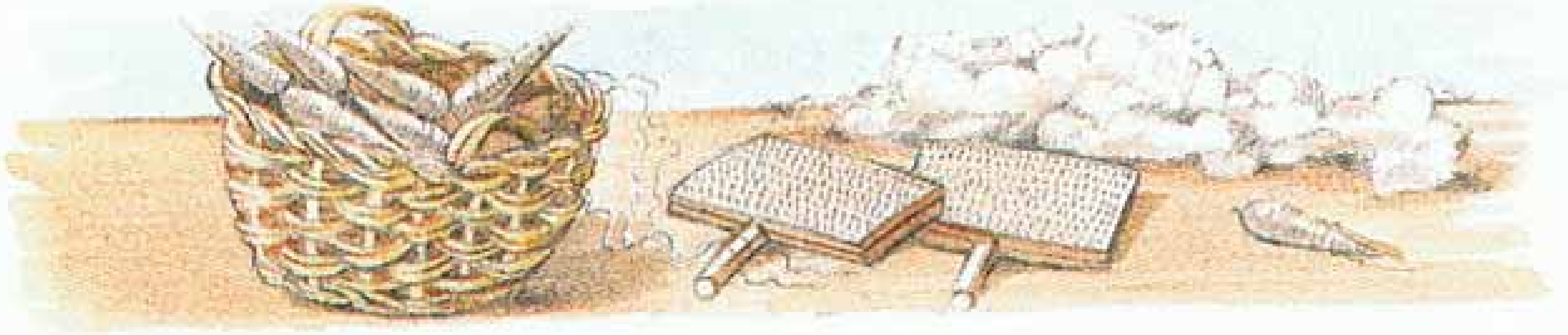
مُراجعَة : هَاني تابري



مكتبة لبنان ناشِرُون

مكتبة لبنان ناشرون ش.م.ل
زقاق البلاط - ص.ب: ١١-٩٢٣٢
بيروت - لبنان
وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم

الطبعة الأولى ١٩٩٥
رقم الكتاب 01 C 196817
طبع في لبنان



مقدّمة

وُلِدَتْ شارْلوت برونْتي في يُورْكْشِر وقَضَتْ مُعْظَمَ أَيّامِها في هاوِرْث في بَيْتِ أَبيها قِسِّ المِنْطَقَةِ. كانَ المَكانُ مُوحِشًا، شَديدَ الرُّطوبَةِ مُطِلًّا على مَدافِنِ القَرْيَةِ، لٰكِنَّهُ مُحاطٌ بِمُرْتَفَعاتِ يُورْكْشِر الرُّومَنْسِيَّةِ الفاتِنَةِ. وكانَتْ شارْلوت في طُفولَتِها تَلْعَبُ وإِخْوَتَها في تِلْكَ الجُرودِ الَّتي تَعْصِفُ بِها الرِّياحُ بِاسْتِمْرارٍ، فَكانَتْ هٰذِهِ المِنْطَقَةُ وَحْيًا لإِطارِ مَسْرَحِ الأَحْداثِ في رِواياتِها. وأَكْثَرُ ما يَبْرُزُ ذٰلِكَ في رِوايَةِ «شيرلي» [Shirley]، فَهِيَ تَدورُ في قَرْيَةٍ بِمِنْطَقَةِ يُورْكْشِر الَّتي يَقْطُنُها مُزارِعون يَحْتَرِفونَ تَرْبِيَةَ الماشِيَةِ، ويَتَمَيَّزُ أَهْلُها بِالْتِصاقِهِمْ بِبيئَتِهِمْ وحُبِّهِمْ لِمِنْطَقَتِهِمْ.

وقَدْ وَضَعَتْ شارْلوت برونْتي كِتابَها هٰذا سَنَةَ ١٨٤٨ إِثْرَ نَجاحِ أَوَّلِ رِوايَةٍ نُشِرَتْ لَها «جين إير» [Jane Eyre]. وكانَتْ إنكلْترا إِذْ ذاكَ تَمُرُّ بِمَرْحَلَةِ التَّصْنيعِ. وما يُمَيِّزُ هٰذه الرِّوايَةَ هُوَ كَوْنُها أَوَّلَ رِوايَةٍ إِنكليزِيَّةٍ تَدورُ حَوْلَ تِلْكَ المَرْحَلَةِ.

وتَعودُ أَحْداثُ القِصَّةِ إلى عامِ ١٨١٢، عِنْدَما بَدَأَ أَبْناءُ الرّيفِ يَشْعُرونَ بِتَأْثيرِ الثَّوْرَةِ الصِّناعِيَّةِ. كانَ والِدُ شارْلوت يَتَذَكَّرُ يُورْكْشِر قَبْلَ ثَلاثينَ عامًا، ورُبَّما سَرَدَ لَها قِصَصًا عَنْ مُحَطِّمي الآلاتِ: فَقَدْ صُنِعَتْ آلاتٌ تَحوكُ الأَنْسِجَةَ بِفاعِلِيَّةٍ أَكْبَرَ مِنَ الطَّريقَةِ اليَدَوِيَّةِ القَديمَةِ، وبِتَكْلِفَةٍ أَقَلَّ. فَاعْتَبَرَ جَماعَةٌ مِنَ العُمّالِ أَنَّ الآلاتِ الحَديثَةَ تُفْضي إلى تَناقُصِ الطَّلَبِ على اليَدِ العامِلَةِ، وقَرَّروا تَحْطيمَ هٰذِهِ الآلاتِ في مُحاوَلَةٍ عَقيمَةٍ لِوَضْعِ حَدٍّ لِلتَّطَوُّرِ. ومُحَطِّمو الآلاتِ

الّذينَ تَحَدَّثَتْ عَنْهُمْ شارْلوت برونْتي في الرِّوايَةِ هُمْ جَميعُهُمْ مِنْ أَبْناءِ المِنْطَقَةِ. أَمّا روبرْت مور، صاحِبُ المَصْنَعِ فَغَريبٌ عَنِ المِنْطَقَةِ، لِذٰلِكَ لَمْ يَثِقوا بِهِ. كانَتْ شارْلوت برونْتي تَعْطِفُ عَلى هٰؤُلاءِ المَساكينِ بِالرَّغْمِ مِنْ عَدَمِ مُوافَقَتِها عَلى تَصَرُّفِهِمِ العَنيفِ، ورَأَتْ ضَرورَةَ التَّوْفيقِ بَيْنَ حُقوقِ العُمّالِ وحاجاتِ صاحِبِ المَصْنَعِ. وبِالفِعْلِ، يَقْتَنِعُ روبرْت مور، في نِهايَةِ الرِّوايَةِ، بِضَرورَةِ تَحْسينِ أُجورِ عُمّالِهِ، بَيْنَما يَتَقَبَّلُ هٰؤُلاءِ الاسْتِعانَةَ بِالآلاتِ الحَديثَةِ.

لَقَدْ بَرَزَ عَدَدٌ كَبيرٌ مِنَ الرِّوائِيّاتِ في القَرْنِ التّاسِعَ عَشَرَ اهْتَمَمْنَ اهْتِمامًا بالِغًا بِدَوْرِ المَرْأَةِ في المُجْتَمَعِ الڤِكْتوريِّ، فَشارْلوت برونْتي انْتَقَدَتْ بِعُنْفٍ سُوقَ الزَّواجِ أَيِ التَّقاليدَ الّتي تَحْصُرُ مُسْتَقْبَلَ المَرْأَةِ في الزَّواجِ فَتَحولُ دونَ مُمارَسَتِها أَيَّ مِهْنَةٍ أَوِ التَّمَتُّعِ بِاسْتِقْلالِيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ. فَكارولين، في الرِّوايَةِ، تَرْغَبُ في الحُصولِ عَلى عَمَلٍ حَقيقِيٍّ لِأَنَّ الأَعْمالَ المُخَصَّصَةَ لِلنِّساءِ، عَلى غِرارِ الخِياطَةِ والمُطالَعَةِ والأَعْمالِ الخَيْرِيَّةِ لا تُرْضيها، فَتُحاوِلُ أَنْ تُصْبِحَ مُرَبِّيَةً لٰكِنَّها تَصْطَدِمُ بِرَفْضِ كُلِّ المُحيطينَ بِها. أَمّا شيرلي كيلْدار فَامْرَأَةٌ قَوِيَّةٌ، مُسْتَقِلَّةٌ بِفَضْلِ ثَرْوَتِها ومَرْكَزِها الاجْتِماعِيِّ. لٰكِنَّها سَتَفْقِدُ شَيْئًا مِنْ حُرِّيَّتِها بَعْدَ الزَّواجِ. وقَدْ آمَنَتْ شارْلوت برونْتي بِالزَّواجِ عَنْ حُبٍّ (عَلى غِرارِ الزَّواجَيْنِ اللَّذينِ تَمّا في نِهايَةِ الرِّوايَةِ) ورَفَضَتْ فِكْرَةَ الزَّواجِ مِنْ أَجْلِ المَكانَةِ الاجْتِماعِيَّةِ أَوْ لِغِيابِ أَيِّ خِيارٍ آخَرَ.

وتَنْتَهي الرِّوايَةُ بِشَكْلٍ إيجابِيٍّ يَدْعو إلى الأَمَلِ والتَّفاؤُلِ. فَشارْلوت برونْتي أَظْهَرَتْ أَنَّ بِإِمْكانِ حَرَكَةِ التَّطَوُّرِ الصِّناعِيِّ أَنْ تَتَكَيَّفَ والقِيَمَ التَّقْليدِيَّةَ وذٰلِكَ لِمَصْلَحَةِ الجَميعِ. ولٰكِنْ، فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، تَبْقى البيئَةُ هِيَ هِيَ، رَمْزًا لِقُوى الطَّبيعَةِ الثّابِتَةِ والّتي نادِرًا ما تَسْتَطيعُ جُهودُ الإِنْسانِ أَنْ تُغَيِّرَها.



شيرلي



تَصْلُحُ تِلالُ غَرْبِ يُوركْشِر وجُرودُها المُمْتَدَّةُ على مَدى البَصَرِ. لِتَرْبِيَةِ الخِرافِ أَكْثَرَ مِمّا تَصْلُحُ لِتَرْبِيَةِ البَقَرِ. لِذٰلِكَ كانَ إِنْتاجُ الصّوفِ والقُماشِ الصّوفيِّ مَصْدَرَ العَيْشِ الرَّئيسيَّ لِأَبْناءِ تِلْكَ المِنْطَقَةِ، مُنْذُ زَمَنٍ بَعيدٍ. وكانَتِ المَصانِعُ تُبْنى في الأَوْدِيَةِ، عَلى مَقْرُبَةٍ مِنَ الجَداوِلِ، فَتُسْتَخْدَمُ قُوَّةُ المِياهِ في تَحْريكِ الدَّواليبِ الكَبيرَةِ وتَسْييرِ آلاتِ الحِياكَةِ البَسيطَةِ. وازْدَهَرَتْ أَحْوالُ أَصْحابِ المَصانِعِ وتَوافَرَتْ فُرَصُ العَمَلِ لِأَهْلِ المِنْطَقَةِ.

إِلّا أَنَّ الأَحْوالَ بَدَأَتْ تَتَغَيَّرُ بِسُرْعَةٍ في أَوائِلِ القَرْنِ التّاسِعَ عَشَرَ. فَراحَتِ الأَسْعارُ والضَّرائِبُ تَرْتَفِعُ لِتَتَمَكَّنَ الدَّوْلَةُ مِنْ مُتابَعَةِ الحَرْبِ النّابوليونِيَّةِ القائِمَةِ. وفَرَضَتِ الحُكومَةُ حِصارًا بَحْرِيًّا حالَ دونَ التَّبادُلِ التِّجارِيِّ بَيْنَ أوروبا والدُّوَلِ المُحايِدَةِ. وأَثارَ هٰذا الإِجْراءُ سُخْطَ أَميركا حَتّى إِنَّها كَفَّتْ عَنِ اسْتيرادِ الصّوفِ والأَنْسِجَةِ مِنْ إِنكلترا. فَأَخَذَتِ البِضاعَةُ غَيْرُ المُباعَةِ تَتَكَدَّسُ في مَصانِعِ يُوركْشِر ومُسْتَوْدَعاتِها. وصُرِفَ العُمّالُ واضْطُرَّتْ عِدَّةُ مَصانِعَ لِلإِقْفالِ، فَانْتَشَرَ البُؤْسُ وعَمَّ العَوَزُ.

بالإضافةِ إلى ذلكَ، شَكَّلَتْ مصانعُ سَبْكِ الحَديدِ تَهْديدًا آخَرَ لِسُكّانِ المِنْطَقَةِ، لِأَنَّها أَنْتَجَتْ آلاتِ حِياكَةٍ كَبيرَةَ الحَجْمِ، مِنْ شَأْنِها أَنْ تُخَفِّضَ عَدَدَ العُمّالِ بِشَكْلٍ مَلْحوظٍ. وبِفَضْلِ تِلْكَ الآلاتِ تَحَسَّنَتْ نَوْعِيَّةُ الأَنْسِجَةِ، لا بَلْ صُنِعَتْ بِطَريقَةٍ أَسْرَعَ وبِتَكْلِفَةٍ أَقَلَّ مِمّا كانَتْ عَلَيْهِ سابِقًا. وقَدْ أَثارَ هٰذا التَّجْديدُ سُخْطَ العُمّالِ، فَأَخَذوا يُحارِبونَهُ بِتَأْسيسِ حَرَكَةِ «اللّوديت» الّتي تَعَهَّدَتْ بِتَحْطيمِ الآلاتِ الحَديثَةِ.

وفي إِحْدى أُمْسِيّاتِ الشِّتاءِ بَدا مَصْنَعُ هولو في الوادي ساكِنًا، لٰكِنَّ شُعاعًا تَسَرَّبَ مِنْ نافِذَةِ غُرْفَةِ المُحاسَبَةِ، وكانَ بَصيصَ النّورِ الوَحيدَ وَسَطَ ظُلْمَةٍ تَلُفُّ المِنْطَقَةَ، بَيْنَما كانَتْ مَصاهِرُ الحَديدِ في مَصانِعِ ستيل بورو تَبْعَثُ نورًا مُتَوَهِّجًا في الأُفُقِ، ناحِيَةَ الشَّرْقِ.

كانَ صاحِبُ المَصْنَعِ روبرْت مور مُنْهَمِكًا بِمُراجَعَةِ حِساباتِهِ والتَّفْكيرِ بِكَيْفِيَّةِ التَّغَلُّبِ عَلى الصُّعوباتِ المُتَفاقِمَةِ الّتي تُواجِهُهُ. وروبرْت هٰذا رَجُلٌ عَزَبٌ في الحادِيَةِ والثَّلاثينَ، وَسيمٌ، طَويلُ القامَةِ، أَسْمَرُ البَشَرَةِ. والغَريبُ فيهِ لَهْجَتُهُ شِبْهُ الأَجْنَبِيَّةِ، إِذْ يَجْري في عُروقِهِ دَمٌ بَلْجيكِيٌّ ودَمٌ إِنْكليزِيٌّ. فَقَدْ كانَ جَدُّهُ تاجِرَ صوفٍ في يوركْشِر وشَريكًا لِقُسْطَنْطين



جيرار في أَنْتورْپ في بَلْجيكا. وقَدْ تَزَوَّجَ ابْنُهُ مِنِ ابْنَةِ جيرار، وساهَمَ في إِدارَةِ المَصْنَعِ الّذي تَوَقَّفَ بَعْدَ الثَّوْرَةِ الفَرَنْسِيَّةِ وما تَلاها مِنْ حُروبٍ في أوروبا.

أَنْجَبَ هٰذانِ الزَّوْجانِ ثَلاثَةَ أَوْلادٍ: روبرْت، وأُخْتُهُ أورْتانْس الّتي تُديرُ شُؤونَ مَنْزِلِهِ في يوركْشِر، والأَخُ الأَصْغَرُ لويس. ونالَ الأُخْوَةُ الثَّلاثَةُ تَرْبِيَةً صالِحَةً، فَأَصْبَحَ لويس مُدَرِّسًا، أَمّا روبرْت فَأَزْمَعَ أَنْ يُعيدَ تَأْسيسَ مَصْنَعِ العائِلَةِ في يوركْشِر ساعِيًا إِلى الفاعِلِيَّةِ والتَّطَوُّرِ في الإِنْتاجِ بِعَزْمٍ ثابِتٍ. لِذٰلِكَ تَعَرَّضَ لِبُغْضِ أَهْلِ المِنْطَقَةِ. وما لَبِثَ أَنْ طَفَحَ الكَيْلُ إِثْرَ قَرارِهِ الحازِمِ بِاعْتِمادِ الآلاتِ الحَديثَةِ، فَعَقَدَ العُمّالُ نِيَّتَهُمْ عَلى تَحْطيمِها.

وبَيْنَما كانَ روبرْت مور جالِسًا أَمامَ المَوْقِدِ في غُرْفَةِ المُحاسَبَةِ، تِلْكَ اللَّيْلَةَ، سَمِعَ صَوْتَ عَرَبَةٍ تَقْتَرِبُ، فَأَمَلَ أَنْ تَكونَ حامِلَةً بَعْضَ الآلاتِ لِلْمَصْنَعِ.

نَهَضَ مُتَلَهِّفًا وسَأَلَ: «أَهٰذا أَنْتَ يا جو؟» ولَمْ يَسْمَعْ سِوى وَقْعِ أَقْدامٍ تَعْدو، فَهَرْوَلَ إِلى الخارِجِ، ورَأَى العَرَبَةَ مُتَوَقِّفَةً والجِيادَ تَلْهَثُ بِشِدَّةٍ، ولا أَثَرَ لِإِنْسانٍ أَوْ لِآلَةٍ. وَقَعَ نَظَرُهُ عَلى وَرَقَةٍ مَوْضوعَةٍ عَلى مَقْعَدِ السّائِقِ وتَحْمِلُ الرِّسالَةَ التّالِيَةَ:

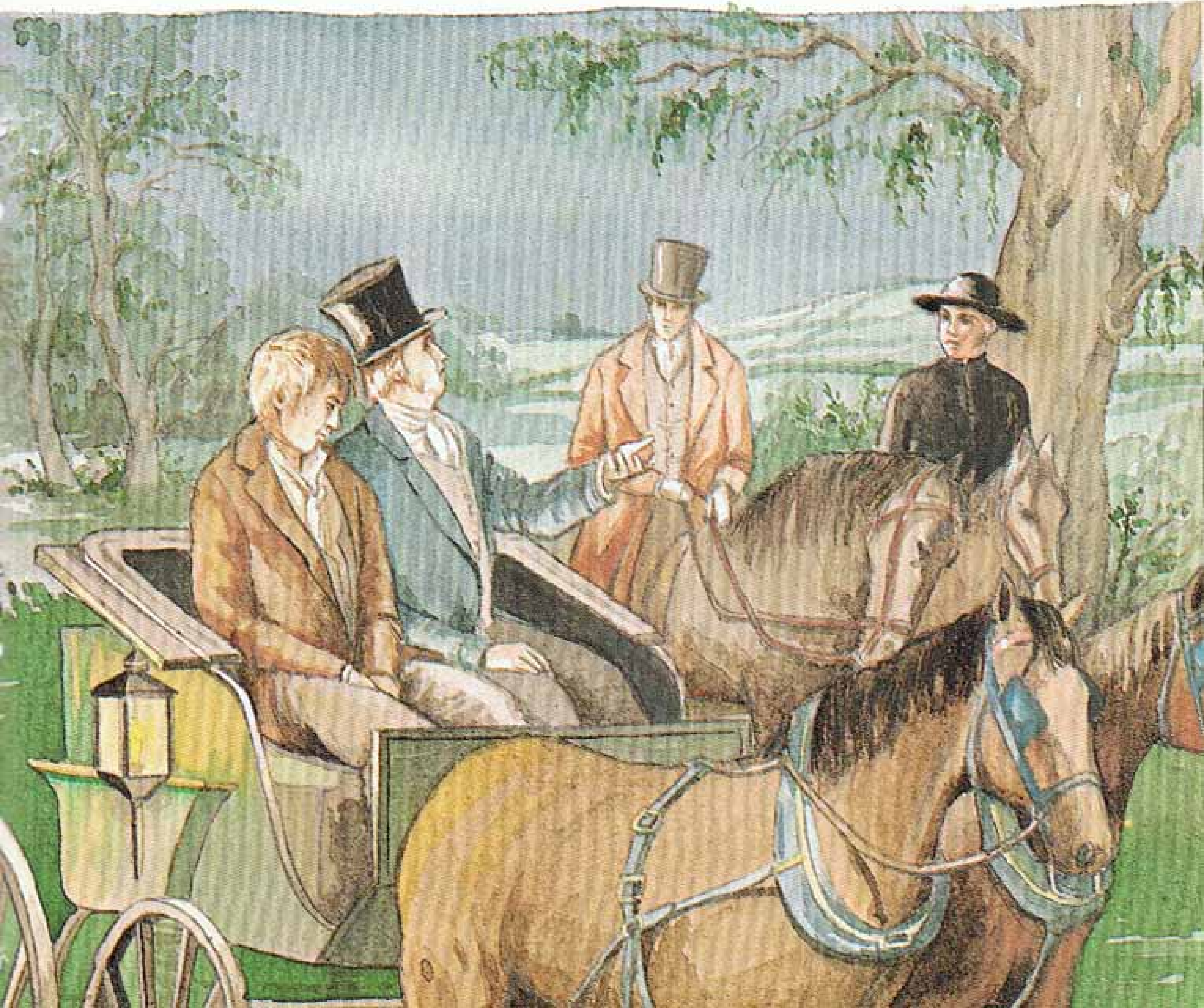


«إلى مور، صاحِبِ مَصْنَعِ (هولو):

آلاتُكَ الشَّيْطانِيَّةُ مُحَطَّمَةٌ في أَرْضِ ستيل بورو ورِجالُكَ مُقَيَّدونَ ومَطْروحونَ في القَناةِ عَلى جانِبِ الطَّريقِ. لِيَكُنْ ذٰلِكَ بِمَثابَةِ تَحْذيرٍ لَكَ. فَإِذا حَصَلْتَ عَلى آلاتٍ أُخْرى حَطَّمْناها أَيْضًا!»

نَزَعَ مور السَّرْجَ عَنِ الجِيادِ، وعَلَفَها وقادَها إلى الإِسْطَبْلِ. ثُمَّ قَرَعَ جَرَسَ الإِنْذارِ وأَشْعَلَ أَنْوارَ المَصْنَعِ. وما إِنْ وَضَعَ السَّرْجَ عَلى حِصانِهِ حَتّى وَصَلَ جارُهُ الأَبُ هلْستون، قِسّيسُ أَبْرَشِيَّةِ «برايرفيلد» مُمْتَطِيًا جَوادَهُ، فَأَخْبَرَهُ مور بِما جَرى.

وسُمِعَ جَرَسُ الإِنْذارِ في نُزُلِ رِدْهاوْس فَأَسْرَعَ بَعْضُ عُمّالِ مور المُخْلِصينَ لِتَقْديمِ المُساعَدَةِ، لِأَنَّ مَصْدَرَ رِزْقِهِمْ باتَ في خَطَرٍ. بَقِيَ بَعْضُهُمْ في المَصْنَعِ لِتَأْمينِ حِمايَتِهِ،



بَيْنَما الْتَحقَ بَعْضُهُمُ الآخَرُ بِمور والسَّيِّدِ هلْستون لإنْقاذِ الرِّجالِ الَّذينَ أُلْقوا في القَناةِ.

ما لَبِثَ رِجالُ الإنْقاذِ وهُمْ في طَريقِهِمْ إلى ستيل بورو، أَنِ الْتَقَوْا بِعَرَبَةٍ آتِيَةٍ نَحْوَهُمْ. فَسأَلَ السَّيِّدُ مور بِصَوْتٍ جَهْوَرِيٍّ: «هَلْ أَنْتَ جو سكوت؟»

وأَتى الجَوابُ مِنَ العَرَبَةِ: «كَلّا. أنا السَّيِّدُ يورْك. لَقَدْ أَنْقَذْتُ جو سكوت. فَبَيْنَما كُنْتُ أَقودُ العَرَبَةَ سَمِعْتُ أَنينًا وصُراخًا آتِيًا مِنْ جانِبِ الطَّريقِ، ووَجَدْتُ جو وأَرْبَعَةً مِنْ رِفاقِهِ مُكَبَّلينَ ومَرْمِيّينَ في القَناةِ. إنَّ جو يُرافِقُني، أَمّا الآخَرونَ فَيَتْبَعونَنا سَيْرًا عَلى الأَقْدامِ... والآنَ وقَدْ أَصْبَحْنا تِسْعَةَ رِجالٍ، أَقْتَرِحُ أَنْ نَعودَ أَدْراجَنا ونُطارِدَ المُعْتَدينَ.»

هَتَفَ مور: «أَجَلْ، فَلْنَلْحَقْ بِهِمْ عَلى الفَوْرِ. أُؤَكِّدُ لَكَ أَنَّ عِقابَهُمْ سَيَكونُ في غايَةِ القَسْوَةِ.»

قالَ السَّيِّدُ يورْك بَعْدَ لَحْظَةٍ مِنَ التَّفْكيرِ: «تَمَهَّلْ! رُبَّما كانَ مِنَ الأَفْضَلِ أَلّا نَتمادى في اسْتِفْزازِهِمْ! فَبَعْدَ التَّرَوّي أَقْتَرِحُ أَنْ تَأْتوا جَميعًا إلى مَنْزِلي لِتَناوُلِ المُرَطِّباتِ.»

وافَقوا عَلى اقْتِراحِ السَّيِّدِ يورْك وتَبِعوا عَرَبَتَهُ إلى مَحَلِّ إقامَتِهِ المَعْروفِ بِمَنْزِلِ برايرمينز، وهُوَ مَقَرٌّ ريفِيٌّ ضَخْمٌ يُعَبِّرُ بِأَثاثِهِ عَنْ ذَوْقِ رَجُلٍ مُثَقَّفٍ -كَثيرِ الأَسْفارِ- يَجْمَعُ حُسْنَ الذَّوْقِ إلى العِلْمِ. فَالسَّيِّدُ حيرام يورْك يَنْتَمي إلى عائِلَةٍ مِن أَغْنى العائِلاتِ وأَهَمِّها في المِنْطَقَةِ.

وفي مَنْزِلِ السَّيِّدِ يورْك قَبِلَ روبِرْت مور المُرَطِّباتِ، أَمّا الأَبُ هلْستون فَرَفَضَها: إذْ كانَ بَيْنَهُ وبَيْنَ مُضيفِهِ عَداوَةٌ قَديمَةٌ تَعودُ إلى أَيّامِ الصِّبا الرّومَنْسِيَّةِ أَساسُها حُصولُ القِسّيسِ عَلى يَدِ فَتاةٍ مِنَ المِنْطَقَةِ كانَ السَّيِّدُ يورْك يَعِدُ نَفْسَهُ بِها. فَلَمْ يُسامِحْهُ يورْك عَلى عَمَلِهِ هٰذا.

قالَ السَّيِّدُ يورْك مُوَجِّهًا كَلامَهُ إلى مور: «اِقْبَلْ نَصيحَتي يا روبِرْت. إنَّكَ بِتَصَرُّفِكَ هٰذا تُكْثِرُ مِنْ أَعْدائِكَ!»

فَأَجابَ مور بِلَهْجَةٍ لاذِعَةٍ: «لا يُهِمُّني إذا كانَ رِجالُ يُورْكْشِر يَكْرَهونَني أَوْ لا.»

وأَرْدَفَ يورْك قائِلًا: «إذا كانَ هٰذا شُعورَكَ، فَمِنَ الأَجْدَرِ بِكَ أَنْ تَعودَ إلى أَنْتورْپ. فَأَبوكَ لَمْ يَرَ الأُمورَ قَطُّ عَلى هٰذا النَّحْوِ.»



والواقِعُ أَنَّهُ كانَ هُناكَ تبايُنٌ بَيْنَ مَواقِفِ الرِّجالِ الثَّلاثَةِ: فَالسَّيِّدُ هلْستون يُضْمِرُ عَداوَةً شَرِسَةً لِلعُمّالِ السّاخِطينَ المُتَمَرِّدينَ، والسَّيِّدُ مور يُواجِهُهُمْ بِقَساوَةٍ لا تَرْحَمُ، لِأَنَّهُ قَدْ وَضَعَ نُصْبَ عَيْنَيْهِ ازْدِهارَ مَصْنَعِهِ لَيْسَ إلاّ. أَمّا السَّيِّدُ يورْك فَيَهْتَمُّ حَقًّا بِمَصيرِ العُمّالِ وبِعيالِهِمِ الَّذينَ يُهَدِّدُهُمُ الجوعُ، مَعَ أَنَّهُ يَميلُ بِطَبْعِهِ إلى الاسْتِبْدادِ. إلاّ أَنَّهُ في ما يَتَعَلَّقُ بِقَضِيَّةِ مَصْنَعِ السَّيِّدِ مور بِالذّاتِ، كانَ يَأْمُلُ أَنْ يُهْزَمَ العُمّالُ المُعْتَرِضونَ.

وعادَ مور وسكوت إلى المَصْنَعِ حَيْثُ قَضَيا لَيْلَتَهُما، مُسْتَعِدَّيْنِ لِلتَّصَدّي لِأَيِّ هُجومٍ مُفاجِئٍ. وبَعْدَ لَيْلٍ هادِئٍ، اسْتَيْقَظا باكِرًا قَبْلَ وُصولِ أَيٍّ مِنَ العُمّالِ الأَوْفِياءِ. ولَمْ يَتَمالَكْ جو مِنْ أَنْ يُعْجَبَ لِحَماسِ رَبِّ عَمَلِهِ ولِروحِ المُبادَرَةِ الَّتي يُبْديها في الحالاتِ الطّارِئَةِ. فَسَأَلَهُ: «هَلْ أَمْثالُكَ كَثيرونَ في بِلادِكَ؟»

أَجابَ روبِرْت: «بِلادي! ولٰكِنْ هٰذِهِ هِيَ بِلادي. فَوالِدي ابْنُ مِنْطَقَةِ يورْكْشِر وإنْ كانَ مَرْكَزُ عَمَلِ العائِلَةِ في بِلْجيكا.»

فَقالَ جو وقَدِ ارْتَسَمَتْ عَلى شَفَتَيْهِ ابْتِسامَةٌ ماكِرَةٌ: «هٰذا صَحيحٌ. فَأَنْتَ مِثْلُنا مُنْدَفِعٌ بِضَراوَةٍ إلى جَمْعِ المالِ... أنا لَمْ أَقْصِدِ الإهانَةَ، فَأَنْتَ تَعْرِفُ أَنَّنا في الشَّمالِ نَبوحُ



دائِمًا بِما نُفَكِّرُ فيهِ. فَضْلاً عَنْ أَنَّنا لَسْنا أَغْبِياءَ كَما يَعْتَقِدُ أَهْلُ الجَنوبِ.»

عِنْدَ السّاعَةِ السّادِسَةِ وَصَلَ بِضْعَةُ عُمّالٍ، وواصَلوا عَمَلَهُمْ حَتّى السّاعَةِ الثّامِنَةِ، فَتَوَقَّفوا عَنِ العَمَلِ نِصْفَ ساعَةٍ لِتَناوُلِ الفَطورِ. وقَطَعَ روبِرْت المَسافَةَ الَّتي تَفْصِلُهُ عَنْ مَنْزِلِهِ المُجاوِرِ لِلمَصْنَعِ، وهُوَ بَيْتٌ صَغيرٌ مَطْلِيٌّ بِالأَبْيَضِ. أَمّا لَوْنُ الشُّرْفَةِ والبابِ فَأَخْضَرُ، وأَمامَ البَيْتِ مَرْجَةٌ صَغيرَةٌ وأَحْواضُ أَزْهارٍ، كانَ روبِرْت يُحِبُّ الاعْتِناءَ بِها. فَأَخَذَ يَقْلِبُ التُّرابَ بِالرَّفْشِ. وبَعْدَ قَليلٍ دَعَتْهُ أُخْتُهُ أورْتانْس لِلدُّخولِ وتَناوُلِ الفَطورِ.

وأورْتانْس تَكْبُرُ أَخاها بِبِضْعِ سَنَواتٍ، وهِيَ طَويلَةُ القامَةِ، تَميلُ إلى البَدانَةِ وتَرْتَدي في الصَّباحِ فُسْتانَها المَعْهودَ ذا الطِّرازِ البَلْجيكِيِّ لِأَنَّها تُصِرُّ عَلى الاحْتِفاظِ بِعاداتِ البِلادِ الَّتي وُلِدَتْ فيها. وهِيَ امْرَأَةٌ فَطِنَةٌ وَقورَةٌ، وكانَتْ تَتَشَبَّثُ بِآرائِها وتَنْفَعِلُ بِسُهولَةٍ لِأَسْبابٍ تافِهَةٍ. ولَمْ تَكُنْ سَعيدَةً في إنكلْترا، إلاّ أَنَّها وَجَدَتِ العَزاءَ في الصَّداقَةِ الَّتي كانَتْ تَرْبِطُها بِجارَتِها كارولين هلْستون ابْنَةِ أَخي الأَبِ هلْستون.

كانَت أورْتانْس مور تُلَقِّنُ كارولين اللُّغَةَ الفَرَنْسِيَّةَ. فَنَشَأَتْ بَيْنَهُما صَداقَةٌ دَعَمَتْها قَرابَةٌ عائِلِيَّةٌ بَعيدَةٌ بَيْنَهُما.

أَتَتْ كارولين قَبْلَ مَوْعِدِ الدَّرْسِ بِنِصْفِ ساعَةٍ قَبْلَ أَنْ يَنْتَهِيَ روبرْت وأورْتانْس مِنْ تَناوُلِ الفَطورِ.

سَأَلَتْها أورْتانْس: «ما سَبَبُ مَجيئِكِ باكِرًا يا كارولين؟»

فَأَجابَتْ: «جِئْتُ لِأَرَى إنْ كُنْتُما في حالَةٍ جَيِّدَةٍ بَعْدَ الَّذي جَرَى البارِحَةَ. فَقَدْ أَثارَتْ هٰذِهِ الأَحْداثُ غَيْظَ عَمّي وأَخْبَرَني أَنَّ السَّيِّدَ يورْك كانَ مَوْجودًا أَيْضًا.»

قالَ روبرْت: «أَجَلْ. ولٰكِنْ عَلَيَّ أَنْ أَرْحَلَ الآنَ إلى وِنْبري، فَاليَوْمَ تُقامُ السّوقُ.»

ورَدَّتْ كارولين قائِلَةً: «لَقَدْ شاهَدْتُ عَرَبَةَ السَّيِّدِ يورْك وأَنا في طَريقي إلى هُنا. لِمَ لا تَعودانِ مَعًا؟ هٰذا آمَنُ لَكُما.»

فَقالَ روبرْت مُبْتَسِمًا: «أَنْتِ تَقْصِدينَ يا كارولين أَنَّ جَميعَ العُمّالِ يَكْرَهونَني ويُحِبّونَ السَّيِّدَ يورْك!»

ورَدَّتْ كارولين: «إِنَّهُمْ لا يَكْرَهونَكَ، يا روبرْت، إِنَّما يُسيئونَ فَهْمَكَ. عَلى كُلِّ حالٍ عَلَيْكُما أَنْ تَعودا قَبْلَ السّادِسَةِ أَيْ قَبْلَ حُلولِ الظَّلامِ.»

وذَهَبَتْ أورْتانْس إلى المَطْبَخِ، فَتَناوَلَ روبرْت دَفْتَرَ كارولين وقالَ: «إِنَّكِ تَتَقَدَّمينَ في دِراسَةِ اللُّغَةِ الفَرَنْسِيَّةِ يا كارولين. ماذا سَتَفْعَلينَ بَعْدَ هٰذا التَّحْصيلِ؟»

فَأَجابَتْهُ: «رُبَّما سَأُمْضي أَيّامي في إدارَةِ مَنْزِلِ عَمّي القِسّيسِ.»

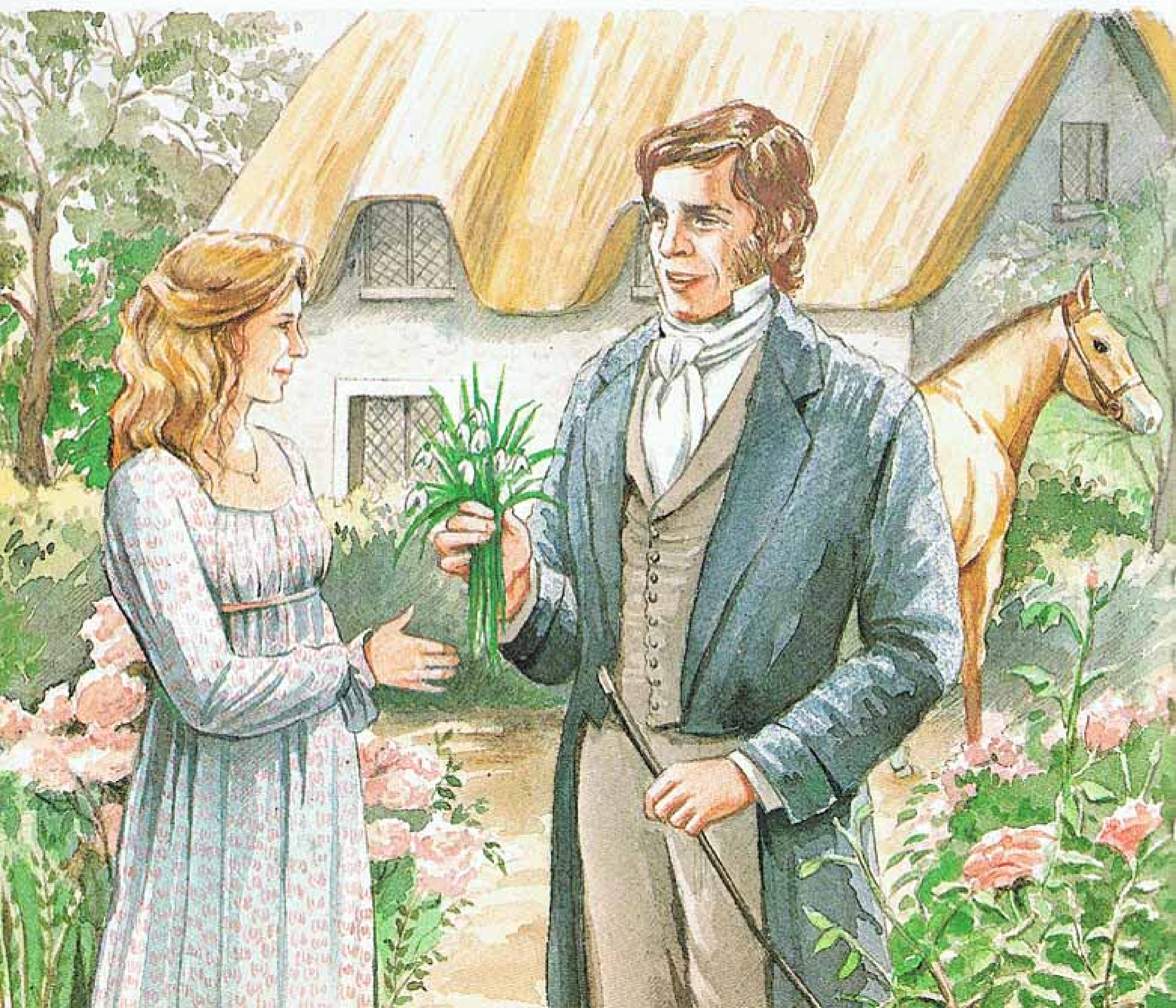
وعَلَّقَ روبرْت: «إِنّي لَأَتَساءَلُ إذا كانَ هٰذا النَّوْعُ مِنَ العَيْشِ يُرْضيكِ!»

فَقالَتْ: «لَيْسَ تَمامًا، فَإِنّي أَوَدُّ أَنْ أَجْنِيَ بَعْضَ المالِ أَيْضًا. وأَنا أَرْغَبُ في أَداءِ عَمَلٍ حَقيقِيٍّ مِمّا يُعْطيني اسْتِقْلالاً ذاتِيًّا. ولَوْ كُنْتُ ذَكَرًا لَكانَ هٰذا سَهْلاً. مَعَ ذٰلِكَ أَظُنُّ أَنَّني أَتَمَتَّعُ بِالجَدارَةِ الكافِيَةِ لِمُساعَدَتِكَ في إدارَةِ شُؤونِ المَصْنَعِ. يُمْكِنُني مَثَلاً أَنْ أُمْسِكَ الحِساباتِ وأَهْتَمَّ بِالمُراسَلاتِ والطَّلَباتِ. إِنّي أَعْلَمُ كَمْ تَسْعَى لِلنَّجاحِ في عَمَلِكَ وأَعْتَقِدُ أَنَّني قادِرَةٌ عَلى مُساعَدَتِكَ.»

فَقالَ روبرْت بِإِعْجابٍ واضِحٍ: «طُموحُكِ كَبيرٌ يا كارولين!»

وتابَعَتْ كارولين قائِلَةً: «بإمْكاني أيْضًا أنْ أفْعَلَ ما هُوَ أكْثَرُ مِنْ ذٰلِكَ. فَأنا أسْتَطيعُ المُساهَمَةَ في تَحْسينِ عَلاقَتِكَ بِعُمّالِكَ. إنَّهُمْ بِنَظَرِكَ مُجَرَّدُ آلاتٍ، بَيْنَما هُمْ في الواقِعِ يَحْتاجونَ إلى أنْ تُعامِلَهُمْ كَبَشَرٍ.»

فَابْتَسَمَ روبرْت مُتَساهِلاً حِيالَ آراءِ كارولين الصَّريحَةِ وانْدِفاعِها السّاذَجِ، واعْتَرَفَ قائِلاً: «أظُنُّ أنَّني رَجُلٌ قاسٍ– لٰكِنَّني قادِرٌ عَلى تَدَبُّرِ الأُمورِ بِمَعونَةِ بَعْضِ الأَصْدِقاءِ المُخْلِصينَ. والآنَ يَجِبُ أنْ أرْحَلَ.» واتَّجَهَ إلى الخارِجِ حَيْثُ كانَ يَقِفُ جَوادُهُ. ولٰكِنْ قَبْلَ أنْ يُغادِرَ، قَصَدَ الحَديقَةَ وقَطَفَ باقَةً صَغيرَةً مِنَ الأَزْهارِ البَيْضاءِ وقَدَّمَها لِكارولين قائِلاً: «اِبْقَيْ لِلعَشاءِ. سَأراكِ عِنْدَما أعودُ. سَأُرافِقُكِ إلى مَنْزِلِ عَمِّكِ حَوالَى السّاعَةِ التّاسِعَةِ.. إلى اللِّقاءِ.»





وكارولين هٰذِهِ فَتاةٌ جَذّابَةٌ جِدًّا، وَديعَةٌ، هَيْفاءُ القَدِّ، زَرْقاءُ العَيْنَيْنِ، بَيْضاءُ البَشَرَةِ، تُكَلِّلُ رَأْسَها حَلَقاتُ شَعْرِها الكَسْتَنائِيِّ الفاتِحِ.

أَمّا والِدُها جيمس هلْستون فكانَ سِكّيرًا فاسِدَ الأَخْلاقِ، وقَدْ عامَلَ زَوْجَتَهُ بِوَحْشِيَّةٍ حَمَلَتْها عَلى الرَّحيلِ. وتَبَنّى القِسّيسُ ابْنَةَ أَخيهِ بَعْدَ وَفاةِ شَقيقِهِ. نالَتْ كارولين ثَقافَةً مَحْدودَةً، لٰكِنْ عِنْدَما اقْتَرَحَتْ قَريبَتُها أورْتانْس أَنْ تُعَلِّمَها الفَرَنْسِيَّةَ قَبِلَتِ العَرْضَ بِسُرورٍ.

وهٰكَذا زادَ تَقَرُّبُ كارولين مِنْ أورْتانْس وروبرْت. وما كانَ مِنْ شَيْءٍ يُسْعِدُ كارولين أَكْثَرَ مِنْ تَلْبِيَةِ دَعْوَةِ قَريبَتِها لَها. وأورْتانْس نَفْسُها كانَتْ تَشْعُرُ بِالسَّعادَةِ في هٰذِهِ

المُناسَباتِ فَتَعْزِفُ عَلى القيثارَةِ وتُغَنّي أُغْنِيّاتٍ فَلَمَنْكِيَّةً شَعْبِيَّةً بِابْتِهاجٍ.

حَيّا روبِرْت كارولين، عِنْدَ عَوْدَتِهِ في المَساءِ، تَحِيَّةً حارَّةً، وقَبَّلَها عَلى جَبينِها.

صَرَّحَتْ كارولين قائِلَةً: «كُنْتُ حَزينَةً لِمُجَرَّدِ التَّفْكيرِ بِاحْتِمالِ عَدَمِ مَجيئِكَ. هَلْ أَنْتَ قَلِقٌ بِشَأْنِ أَوْضاعِ البِلادِ؟» فَأَجابَ روبِرْت: «كَلّا، وإذا لاحَظْتِ، أَحْيانًا، انْشِغالي فَمَرَدُّ ذٰلِكَ تَفْكيري بِنَجاحِ المَصْنَعِ. فَأَنا أُريدُ الحُصولَ عَلى مَرْكَزٍ مَرْموقٍ.» وهَتَفَتْ كارولين: «سَتُحَقِّقُ مُرادَكَ بِالتَّأْكيدِ، فَأَنْتَ مُؤَهَّلٌ لِكَيْ تُصْبِحَ رائِدًا في الصِّناعَةِ!»

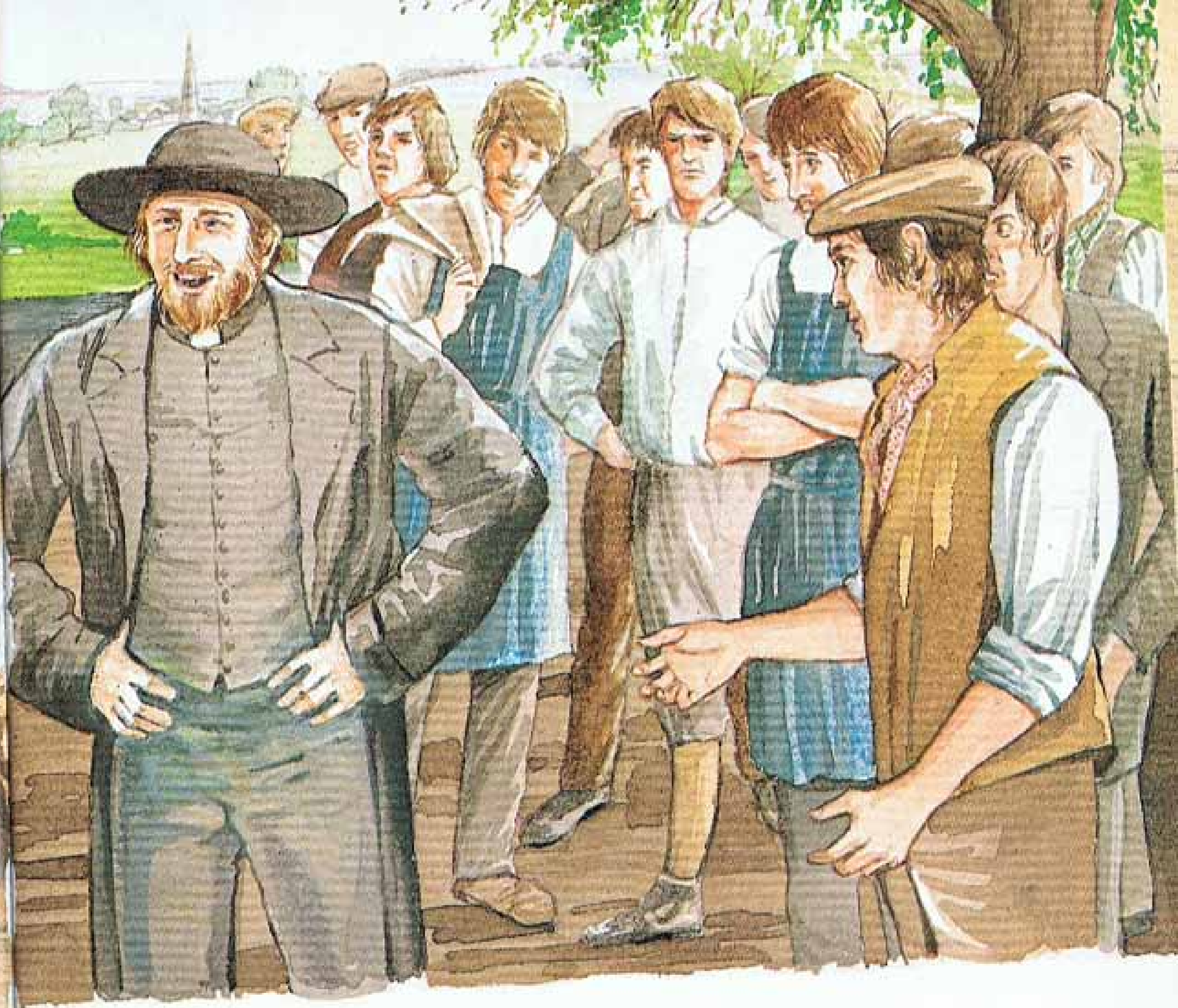
فَقالَ روبِرْت مُداعِبًا: «ولٰكِنّي سَأَفْشَلُ، مِنْ دونِ شَكٍّ إذا عَمِلْتُ بِنَصائِحِكِ. فَلَيْسَتِ الحَياةُ يا كاري كَما تَتَصَوَّرينَها، لِأَنَّكِ تَحْكُمينَ بِقَلْبِكِ لا بِعَقْلِكِ.» رَدَّتْ كارولين قائِلَةً: «إنّي عَلى يَقينٍ أَنَّ حُصولَكَ عَلى مَوَدَّةِ عُمّالِكَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَخْدِمَ مَصْلَحَةَ الطَّرَفَيْنِ.»

فَعَلَّقَ روبِرْت: «إذًا، عَلَيْنا أَنْ نُقِرَّ بِالاخْتِلافِ، بَيْني وبَيْنَكِ، حَوْلَ هٰذا المَوْضوعِ!».

في السّاعَةِ التّاسِعَةِ وَفى روبِرْت بِوَعْدِهِ ورافَقَ كارولين إلى مَنْزِلِها. وعِنْدَ وُصولِهِما إلى مَنْزِلِ القِسّيسِ بَدا روبِرْت صامِتًا مُطْرِقًا. فَتَوَقَّفَ وأَلْقى عَلى كارولين نَظْرَةً مِلْؤُها الحَنانُ وتَمْتَمَ بِشَيْءٍ مِنَ الغُموضِ: «هٰذا لَنْ يُجْدِيَ نَفْعًا، لا بَلْ يُسَبِّبُ الضَّرَرَ. لَقَدْ سَبَقَ وانْتابَني الشُّعورُ نَفْسُهُ، ولٰكِنَّهُ سَيَزولُ غَدًا.» ثُمَّ قَبَّلَ كارولين عَلى جَبينِها وقَفَلَ عائِدًا.

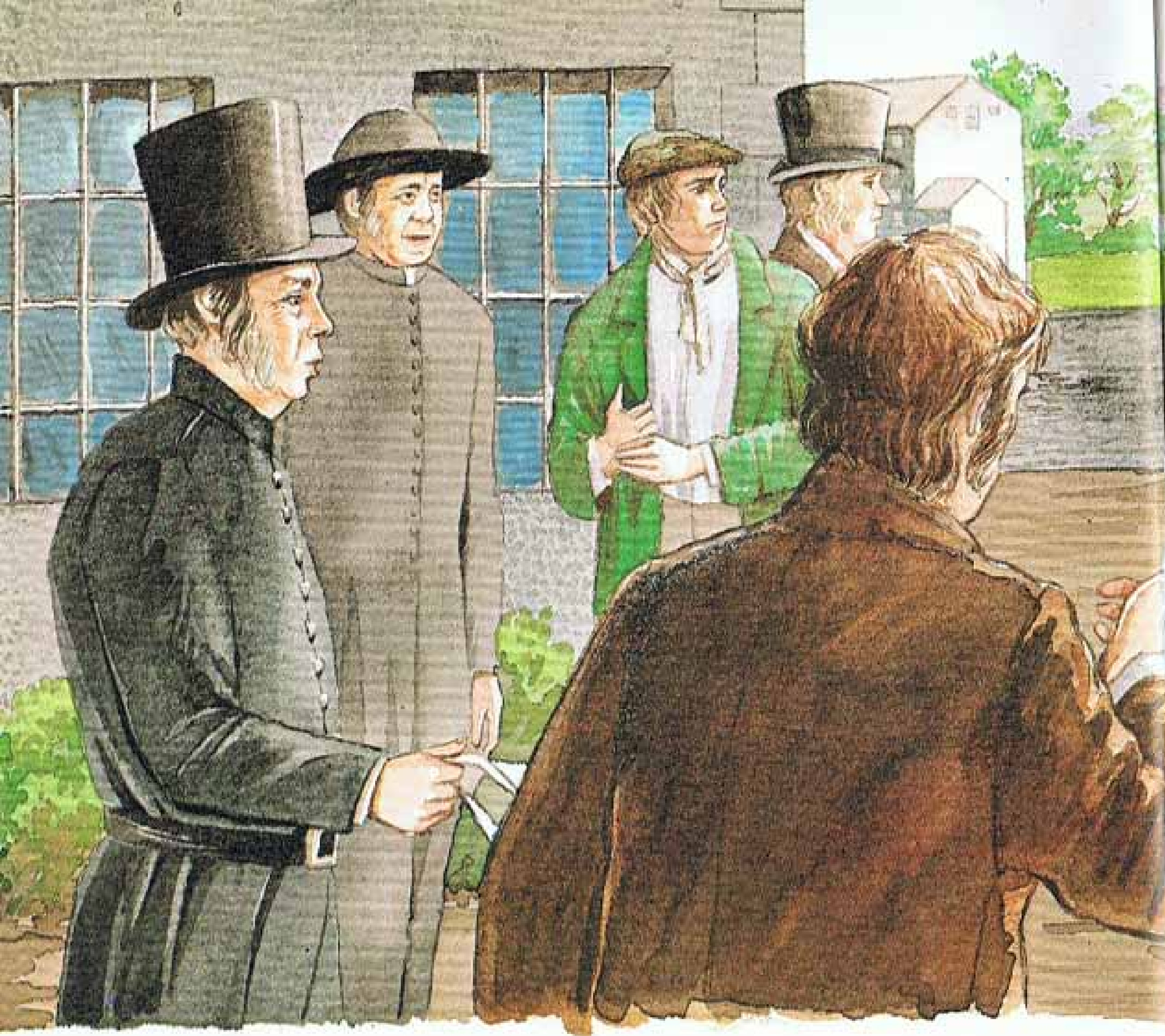
وحَلَمَتْ كارولين بِروبِرْت تِلْكَ اللَّيْلَةَ. فَاسْتَيْقَظَتْ وقَلْبُها مُفْعَمٌ بِالفَرَحِ، لِأَنَّها باتَتْ مُتَأَكِّدَةً مِنْ حُبِّهِ لَها. ولَمْ تَتَمالَكْ عَنِ التَّفْكيرِ في الزَّواجِ. وكانَ مَوْضوعُ الزَّواجِ يَأْتي دائِمًا عَلى لِسانِ عَمِّها بِشَيْءٍ مِنَ الازْدِراءِ والهُزْءِ. كانَتْ كارولين تَعْلَمُ مَدى فَشَلِ زَواجِ والِدَيْها، ولَمْ يَفُتْها أَيْضًا فَشَلُ زَواجِ عَمِّها، إلّا أَنَّها لَمْ تَفْقِدْ أَمَلَها في الزَّواجِ.

عِنْدَما ذَهَبَتْ في مَوْعِدِ دَرْسِ اللُّغَةِ الفَرَنْسِيَّةِ عَلى يَدِ أورْتانْس، صادَفَتْ روبِرْت واقِفًا عِنْدَ مَدْخَلِ الحَديقَةِ بِقامَتِهِ الطَّويلَةِ وطَلْعَتِهِ البَهِيَّةِ. غَيْرَ أَنَّ تَحِيَّتَهُ كانَتْ بارِدَةً، غَيْرَ وُدِّيَّةٍ. فَشَعَرَتْ بِالحُزْنِ والخَيْبَةِ وتَذَكَّرَتْ كَيْفَ وَضَعَ حَدًّا لِآمالِها في اللَّيْلَةِ السّابِقَةِ عِنْدَما قالَ كَلِماتِهِ الغامِضَةَ: «هٰذا لَنْ يُجْدِيَ نَفْعًا...».



في صَباحِ اليَوْمِ التّالي انْضَمَّ السَّيِّدُ هلْستون والسَّيِّدُ سايْكس – وهُوَ أَيْضًا صاحِبُ مَصْنَعٍ – إلى روبرْت مور وجو سكوت في مَصْنَعِ هولو. وكانَ قَدْ عُلِمَ أَنَّ أَحَدَ المُتَمَرِّدينَ تَكَلَّمَ عَنْ نِيَّةِ بَعْضِ العُمّالِ الثّائِرينَ بِتَدْميرِ مَصْنَعِ مور في ذٰلِكَ الصَّباحِ بِالذّاتِ. وكانَ يَقودُ هٰؤُلاءِ العُمّالَ موسى باراكلو وهُوَ أَحَدُ المُبَشِّرينَ، مِنْ أَهْلِ المِنْطَقَةِ، مَعْروفٌ بِإِثارَةِ الفِتَنِ والتَّحْريضِ عَلى العُصْيانِ.

وحَمَلَ روبرْت مور مُفَوَّضَ الشُّرْطَةِ في المِنْطَقَةِ جون سَغْدن عَلى الانْضِمامِ إِلَيْهِمْ حامِلاً مُذَكِّرَةَ تَوْقيفٍ بِحَقِّ باراكلو. وعِنْدَما وَصَلَ العُمّالُ إلى السّاحَةِ، خَرَجَ مور بِجُرْأَةٍ لِمُواجَهَتِهِمْ، واتَّهَمَ باراكلو بِالاحْتِيالِ والخُبْثِ. فَثارَتْ ثائِرَةُ باراكلو وخاطَبَ مور قائِلاً: «أَنْتَ غَريبٌ هُنا، يا مور، ولا تَفْهَمُنا نَحْنُ العُمّالَ. فَأَقْتَرِحُ أَنْ تَعودَ إلى بلْجيكا. وإلّا فارْمِ آلاتِكَ جانِبًا



وامْنَحْ رِجالَكَ عَمَلاً، فَهُمْ يَتَضَوَّرونَ جوعًا.»

فَصاحَ مور: «اِخْرَسْ. كُلُّنا يَعْرِفُ أَنَّكَ سِكّيرٌ حَقيرٌ ومُحْتالٌ، ومُثيرٌ لِلفِتَنِ، ولا أَحَدَ يَحْتَرِمُكَ... أَنا باقٍ هُنا، وسَأُجَهِّزُ مَصْنَعي بِأَحْدَثِ الآلاتِ الّتي يُمْكِنُني شِراؤُها، وإِذا أَحْرَقْتَ المَصْنَعَ بَنَيْتُ واحِدًا آخَرَ أَفْضَلَ مِنْهُ. لَقَدْ تَعَدَّيْتَ حُدودَكَ بِما فيهِ الكِفايَةُ، وسَتَتَحَمَّلُ العَواقِبَ!».

ثُمَّ طَلَبَ مور مِنْ سَغْدن أَنْ يُبْرِزَ مُذَكِّرَةَ التَّوْقيفِ قائِلاً: «لَقَدْ هاجَمَ هٰذا الشَّخْصُ رِجالي وحَطَّمَ آلاتي في مِنْطَقَةِ ستيل بورو، ولَدَيَّ البُرْهانُ الأَكيدُ عَلى ذٰلِكَ. فَاقْبِضْ عَلَيْهِ مِنْ فَضْلِكَ!»



أُلقِيَ القَبْضُ على باراكلو في الحالِ، فَأَخَذَ رِفاقُهُ يَحْتَجّونَ مُحاوِلينَ الاقْتِرابَ لِتَحْريرِهِ. فَصَرَخَ مور وقَدْ أَخْرَجَ مُسَدَّسًا مِنْ جَيْبِهِ: «مَكانَكُمْ! هٰذا المُسَدَّسُ مُلَقَّمٌ بِالرَّصاصِ، وسَأُطْلِقُ النّارَ عَلى كُلِّ مَنْ يَقِفُ في وَجْهِ القانونِ!»

ثُمَّ تَقَدَّمَ وِلْيَم فارِن، أَحَدُ المُتَمَرِّدينَ وطَلَبَ أَنْ يُفْسَحَ لَهُ المَجالُ في الكَلامِ. وكانَ الجَميعُ يَحْتَرِمونَهُ لِاسْتِقامَتِهِ، فَأَصْغى مور إلى كَلامِهِ.

قالَ فارِن: «عَفْوًا سَيِّدي! أَنا لا أُوافِقُ باراكلو عَلى كُلِّ ما قالَهُ أَوْ فَعَلَهُ. لٰكِنّي قَلِقٌ عَلى عائِلاتِ العُمّالِ. أَعْرِفُ أَنَّنا لا نَسْتَطيعُ أَنْ نَحولَ دونَ اسْتِعْمالِ الآلاتِ الحَديثَةِ. ولٰكِنْ، أَلا يُمْكِنُكَ اعْتِمادُها بِالتَّدْريجِ؟ إِنَّ تَحَوُّلًا بِهٰذا الحَجْمِ يَحْتاجُ إلى الوَقْتِ. هَلْ تَفْهَمُني يا سَيِّدي؟»

فَأَجابَهُ مور: «اِسْمَعْ يا فارِن، لا مَفَرَّ مِنْ تَجْهيزِ مَصْنَعي بِالآلاتِ الحَديثَةِ، وإلاَّ تَفَوَّقَ عَلَيَّ المُنافِسونَ واضْطُرِرْتُ إلى الانْسِحابِ مِنْ ساحَةِ العَمَلِ. وهٰذا لَنْ يُطْعِمَ العائِلاتِ الَّتي تَقْلَقُ عَلَيْها... سَتَصِلُ الأَجْهِزَةُ الجَديدَةُ غَدًا، ولا رُجوعَ عَنْ ذٰلِكَ!»

بَعْضُ الَّذينَ أَصْغَوْا إلى كَلامِ فارِن تَعاطَفوا مَعَهُ، لِأَنَّ ما قالَهُ لَمْ يَخْلُ مِنَ الإيجابيَّةِ. ولٰكِنَّ مور لَمْ يُغَيِّرْ مَوْقِفَهُ. اِقْتادَ الشُّرْطِيُّ باراكلو، بَيْنَما تَفَرَّقَ الآخَرونَ مُتَّجِهينَ نَحْوَ مَنازِلِهِمْ.

شَكَرَ روبِرْت مور رِفاقَهُ لِمُساعَدَتِهِمْ إلاَّ أَنَّهُ لَمْ يَشْعُرْ بِالارْتِياحِ، وظَلَّ يُفَكِّرُ بِوِلْيَم فارِن، رُبَّما لِأَنَّهُ كانَ مُتَأَثِّرًا بِأَقْوالِ كارولين. وفي مَساءِ ذٰلِكَ اليَوْمِ قَصَدَ مور صَديقَهُ حيرام يورْك في برايرمينز. فَوَجَدَ السَّيِّدَ يورْك وزَوْجَتَهُ في غُرْفَةِ الجُلوسِ قُرْبَ المَوْقِدِ، أَمامَ نارٍ مُتَأَجِّجَةٍ، وكانَ أَوْلادُهُما الأَرْبَعَةُ وابْنَتاهُما يَلْعَبونَ. كانَ الأَصْغَرُ بَيْنَهُمْ طِفْلاً، أَمّا البِكْرُ فَقَدْ بَلَغَ السّادِسَةَ عَشْرَةَ.

والسَّيِّدَةُ يورْك امْرَأَةٌ بَدينَةٌ، تَظْهَرُ الرَّزانَةُ عَلى مَلامِحِها، وتَحْمِلُ عَلى ما يَبْدو عِبْءَ هُمومٍ كَثيرَةٍ. ونادِرًا ما تَبْدو مَرِحَةً، غَيْرَ أَنَّها أُمٌّ صالِحَةٌ. وهِيَ تَرى دائِمًا في النّاسِ مُجَرَّدَ أَعْداءٍ وبِخاصَّةٍ الرِّجالُ.

اِسْتَقْبَلَتِ السَّيِّدَ روبِرْت بِطَريقَةٍ تُفْصِحُ عَنْ طَبْعِها هٰذا قائِلَةً: «لِماذا أَنْتَ خارِجَ مَنْزِلِكَ في هٰذِهِ السّاعَةِ المُتَأَخِّرَةِ مِنَ اللَّيْلِ يا سَيِّدُ مور؟»

وأَجابَها مور بِابْتِسامَةٍ مَريرَةٍ: «هٰذا لا يَنْطَبِقُ عَلى الرَّجُلِ العَزَبِ، يا سَيِّدَتي. لَقَدْ جِئْتُ في الحَقيقَةِ لِلتَّحَدُّثِ إلى زَوْجِكِ بِشَأْنِ مَشاكِلِ المَصْنَعِ.»

ثُمَّ أَخَذَ روبِرْت مور السَّيِّدَ يورْك جانِبًا، وسَأَلَهُ بِصَوْتٍ خافِتٍ: «هَلْ أَنْتَ بِحاجَةٍ إلى اسْتِخْدامِ عامِلٍ كُفْءٍ؟ عَلَيَّ أَنْ أَجِدَ عَمَلاً لِوِلْيَم فارِن! لَقَدْ تَكَلَّمَ جِهارًا هٰذا الصَّباحَ وأُعْجِبْتُ بِأَقْوالِهِ. فَهُوَ عَلى الأَقَلِّ صَريحٌ وصادِقٌ.. أَنْتَ تَمْلِكُ حَديقَةً واسِعَةً. أَيُمْكِنُكَ تَوْكيلُهُ بِعَمَلٍ ما؟ أَتَصَوَّرُ أَنَّهُ بُسْتانِيٌّ بارِعٌ!»

وفَكَّرَ السَّيِّدُ يورْك مَلِيًّا ثُمَّ قالَ مُطَمْئِنًا السَّيِّدَ مور: «حَسَنًا، سَأَسْتَدْعيهِ في الصَّباحِ.. ولٰكِنْ ماذا حَدَثَ لِباراكلو؟» فَأَجابَ مور: «لَقَدْ قُبِضَ عَلَيْهِ!»

وعَلَّقَ السَّيِّدُ يورْك على ذٰلِكَ قائِلًا: «هٰذا لَيْسَ تَصَرُّفًا حَكيمًا يا روبِرْت! وَسَيَجْعَلُ باراكلو بَطَلًا بِنَظَرِ النّاسِ!»

هنا قالَ مور بِحَزْم: «لا. لا مَفَرَّ مِنَ القَبْضِ عَلَيْهِ. فَإِذا تُرِكَ طَليقًا حَطَّمَ آلاتي وقادَني حَتْمًا إلى الإِفْلاسِ. لَقَدْ أَنْفَقْتُ كُلَّ ما لَدَيَّ مِنْ مالٍ ولا أَسْتَطيعُ بَيْعَ النَّسيجِ. ولٰكِنْ بِفَضْلِ الآلاتِ الحَديثَةِ سَأَتَمَكَّنُ مِنْ إعادَةِ بِناءِ ثَرْوَتي في الوَقْتِ المُناسِبِ.»

قالَ يورْك: «ما تَحْتاجُهُ يا صَديقي هُوَ زَوْجَةٌ ثَرِيَّةٌ!» فَأَجابَ روبِرْت بَعْدَ لَحْظَةِ تَأَمُّلٍ: «لا، لا يُمْكِنُني الآنَ التَّفْكيرُ بِالحُبِّ!» وَأَرْدَفَ يورْك، قائِلًا: «اِحْزِمْ أَمْرَكَ أَيُّها الشّابُّ! فَلا تَزالُ أَمامَكَ فُرْصَةٌ لِاسْتِعادَةِ ثَرْوَتِكَ!»

بِقُدومِ فَصْلِ الرَّبيعِ، بَدا الجَوُّ مُفْعَمًا بِالأَمَلِ وكُلَّما مَرَّتِ الغُيومُ أَمامَ الشَّمْسِ ارْتَسَمَتْ، عَلى امْتِدادِ الأَرْضِ الخَضْراءِ، رُسومٌ مِنَ الظِّلِّ والنُّورِ، وغَدا لَوْنُ الغاباتِ والوُدْيانِ أَخْضَرَ مُريحًا لِلنَّظَرِ فيما شَرَعَتِ البَراعِمُ تَتَفَتَّحُ. أَمّا بِالنِّسْبَةِ لِلنّاسِ فَقَدْ كانَ الأَمَلُ مُسْتَبْعَدًا. فَتَتابَعَتِ انْتِصاراتُ نابوليون وتَوَقَّفَ التَّبادُلُ التِّجارِيُّ. وباتَ آلافُ العُمّالِ المَساكينِ عاطِلينَ عَنِ العَمَلِ والكَثيرُ مِنْ أَرْبابِ العَمَلِ عَلى قابِ قَوْسَيْنِ مِنَ الإِفْلاسِ. وإِزاءَ انْتِشارِ البُؤْسِ والشَّقاءِ أَصْبَحَ النّاسُ - ومِنْ بَيْنِهِمْ يورْك ومور- يَسْعَوْنَ وَراءَ السِّلْمِ والطُّمَأْنينَةِ بِأَيِّ ثَمَنٍ. وأَخَذَ روبِرْت يُحَرِّضُ النّاسَ عَلى جَعْلِ الحُكومَةِ تُبَدِّلُ سِياسَتَها - فَاخْتَلَفَ وجارَهُ السَّيِّدَ هلْستون لِأَنَّ هٰذا الأَخيرَ وَطَنِيٌّ مُتَزَمِّتٌ ومُتَشَبِّثٌ بِآرائِهِ وهُوَ عَلى اسْتِعْدادٍ دائِمٍ لِلدِّفاعِ المُسْتَميتِ عَنْ وُجْهَةِ نَظَرِ الحُكومَةِ. ولِهٰذا السَّبَبِ كَفَّ السَّيِّدُ هلْستون عَنِ التَّعاطي مَعَ جارِهِ السَّيِّدِ مور وحَظَّرَ عَلى كارولين مُتابَعَةَ دُروسِها مَعَ أورْتانْس.

كانَ ذٰلِكَ كارِثَةً بِالنِّسْبَةِ لِكارولين، إِذْ فَصَلَها عَنْ أَعَزِّ صَديقَةٍ، وحَرَمَها إِحْدى الفُرَصِ النّادِرَةِ الّتي أَتاحَتْ لَها التَّثَقُّفَ، وأَبْعَدَها عَنْ روبِرْت. فَسَيْطَرَتْ عَلَيْها الكَآبَةُ وشَعَرَتْ بِالسَّقَمِ والوَهَنِ، ورَأَتْ أَنَّ الحَلَّ قَدْ يَكونُ في الرَّحيلِ عَنِ المِنْطَقَةِ والعَمَلِ كَمُرَبِّيَةٍ في مِنْطَقَةٍ أُخْرى.

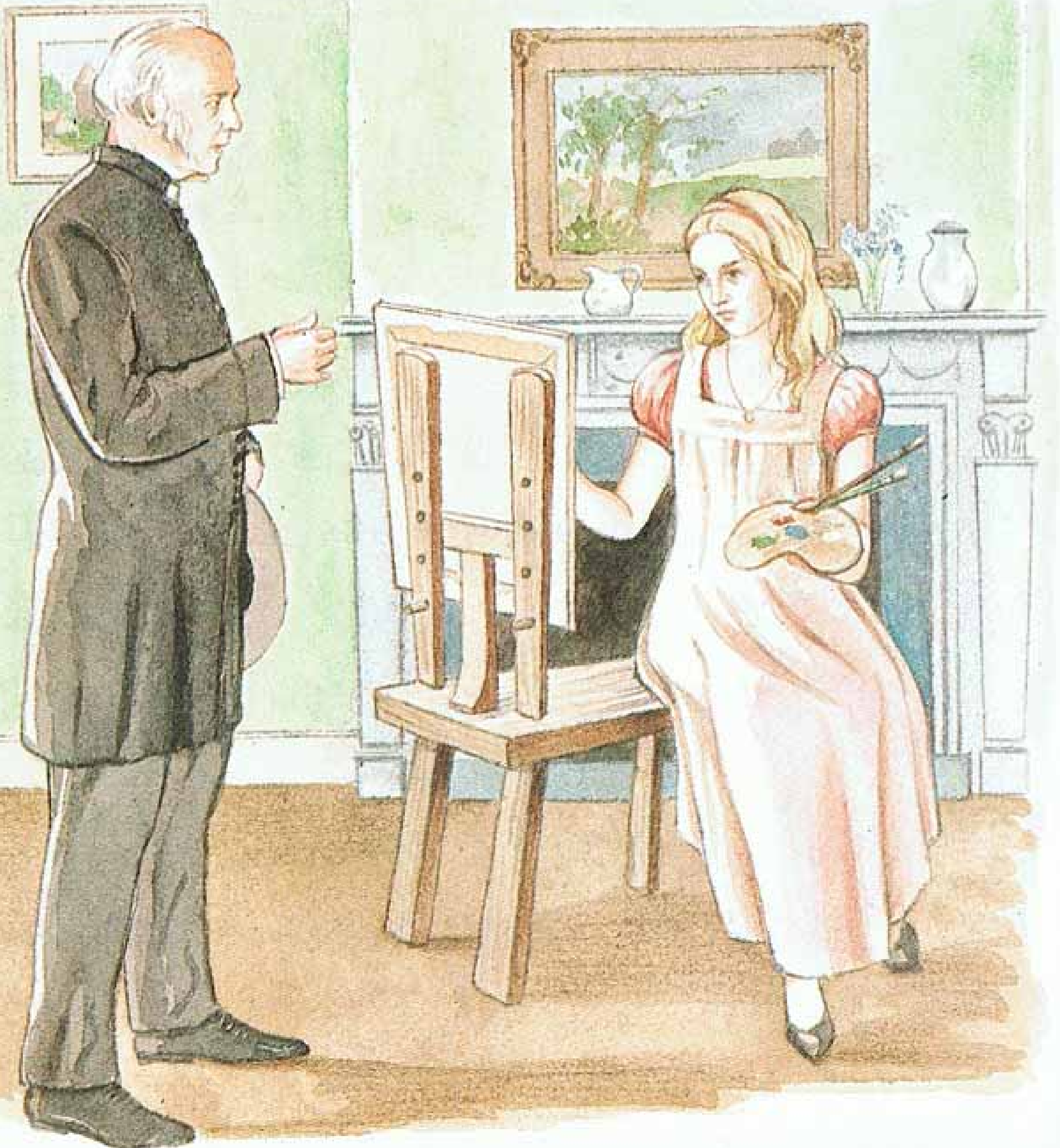
وإِذْ بَدَتْ كارولين حَزينَةً ومُنْطَوِيَةً عَلى نَفْسِها بِشَكْلٍ واضِحٍ، ما لَبِثَ عَمُّها أَنْ لاحَظَ ذٰلِكَ. وذاتَ يَوْمٍ وَجَدَها السَّيِّدُ هلْستون في غُرْفَةِ الجُلوسِ مُنْهَمِكَةً في رَسْمِ لَوْحَةٍ.

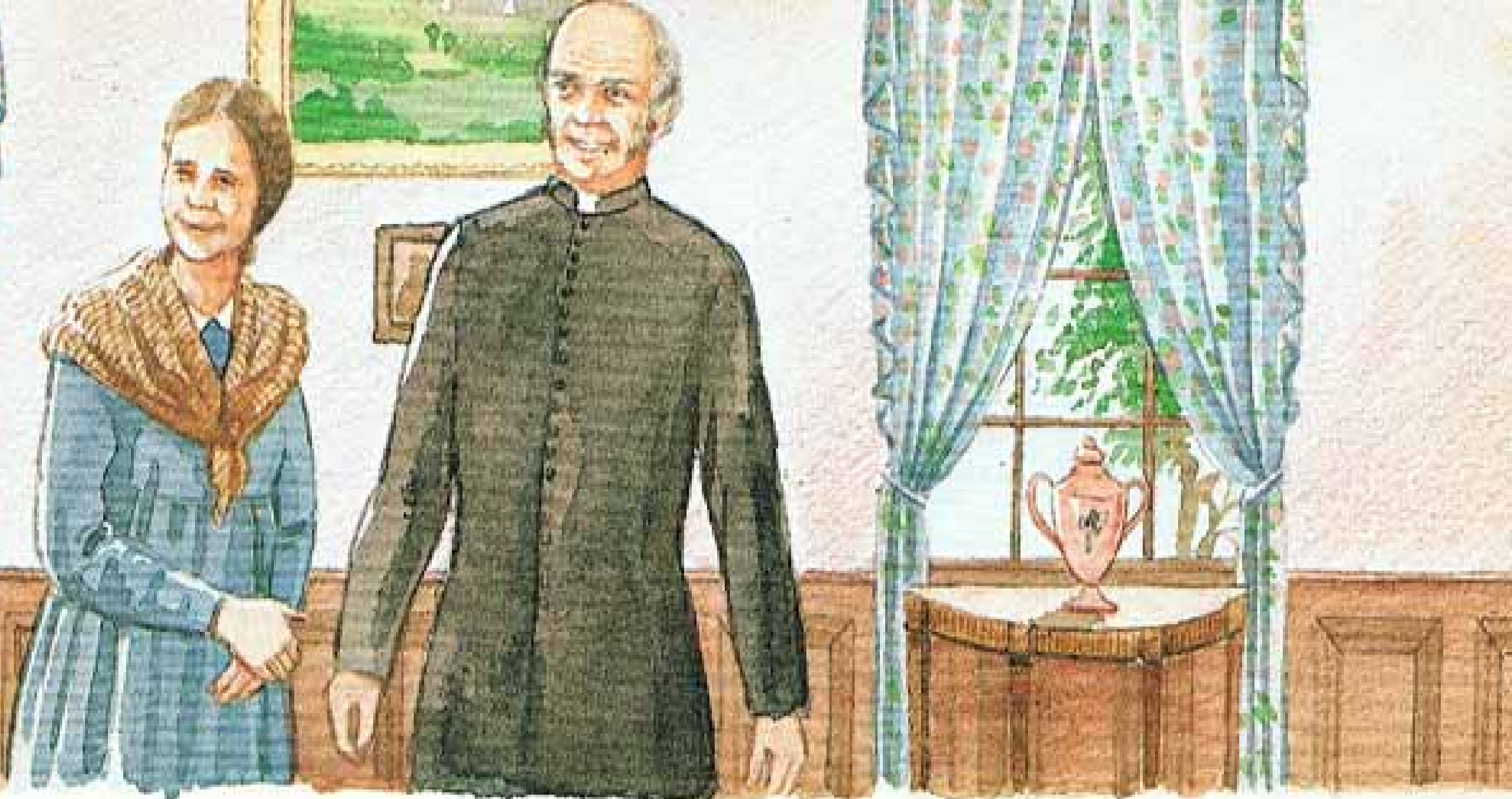
فَقالَ: «يا ابْنَتي، أَنْتِ لا تَخْرُجينَ أَبدًا، فَاعْتَمِري قُبَّعَتَكِ وتَعالَيْ مَعي في نُزْهَةٍ.»

سَأَلَتْهُ كارولين بِفُتورٍ: «إلى أَيْنَ؟»

فَأَجابَها: «إلى فيلدهِد، لَقَدْ عادَتِ الآنِسَةُ شيرلي لِلإِقامَةِ هُناكَ، بَعْدَ أَنْ بَلَغَتْ سِنَّ الرُّشْدِ. أُريدُكِ أَنْ تَلْتَقي بِها، فَهِيَ فَتاةٌ رائِعَةٌ وسَتَرْفَعُ مِنْ مَعْنَوِيّاتِكِ.»

وفيلدهِد مَنْزِلٌ كَئيبٌ فيهِ قاعَةُ اسْتِقْبالٍ مُسْتَطيلَةٌ مُظْلِمَةٌ، في أَقْصى طَرَفِها مَجْموعَةٌ مِنْ رُؤوسِ الأَيائِلِ تَنْحَني نَحْوَ الزّائِرينَ. كانَ هٰذا المَنْزِلُ القَديمُ الواسِعُ مُلْكَ أُسْرَةِ كيلْدار على مَدى عِدَّةِ أَجْيالٍ. وكانَ أَسْيادُ القَصْرِ بِالطَّبْعِ مِنَ المَلاّكينَ الكِبارِ في المِنْطَقَةِ.





اِسْتَقْبَلَتْ كارولين وعَمَّها سَيِّدَةٌ مُتَوَسِّطَةُ العُمْرِ تَرْتَدي ثَوْبًا مِنَ الطِّرازِ القَديمِ. فَأَدْخَلَتْهُما قاعَةً جُدْرانُها مَكْسُوَّةٌ بِأَلْواحٍ مِنْ خَشَبِ السِّنْديانِ. كانَتْ تِلْكَ المَرْأَةُ السَّيِّدَةَ برايور مُرَبِّيَةَ الآنِسَةِ كيلْدار في السّابِقِ. وما لَبِثَتْ أَنِ انْضَمَّتْ إِلَيْهِم السَّيِّدَةُ الشّابَّةُ نَفْسُها. وهٰذه الأَخيرَةُ فَتاةٌ جَذّابَةٌ تَفوقُ كارولين طُولاً ولٰكِنْ بِقَدْرٍ ضَئيلٍ، وهِيَ نَحيلَةٌ مَمْشوقَةُ القَدِّ، شَعْرُها بُنِّيٌّ قاتِمٌ وعَيْناها رَمادِيَّتانِ ومَلامِحُها دَقيقَةٌ كَأَنَّها قَدْ نُحِتَت نَحْتًا.

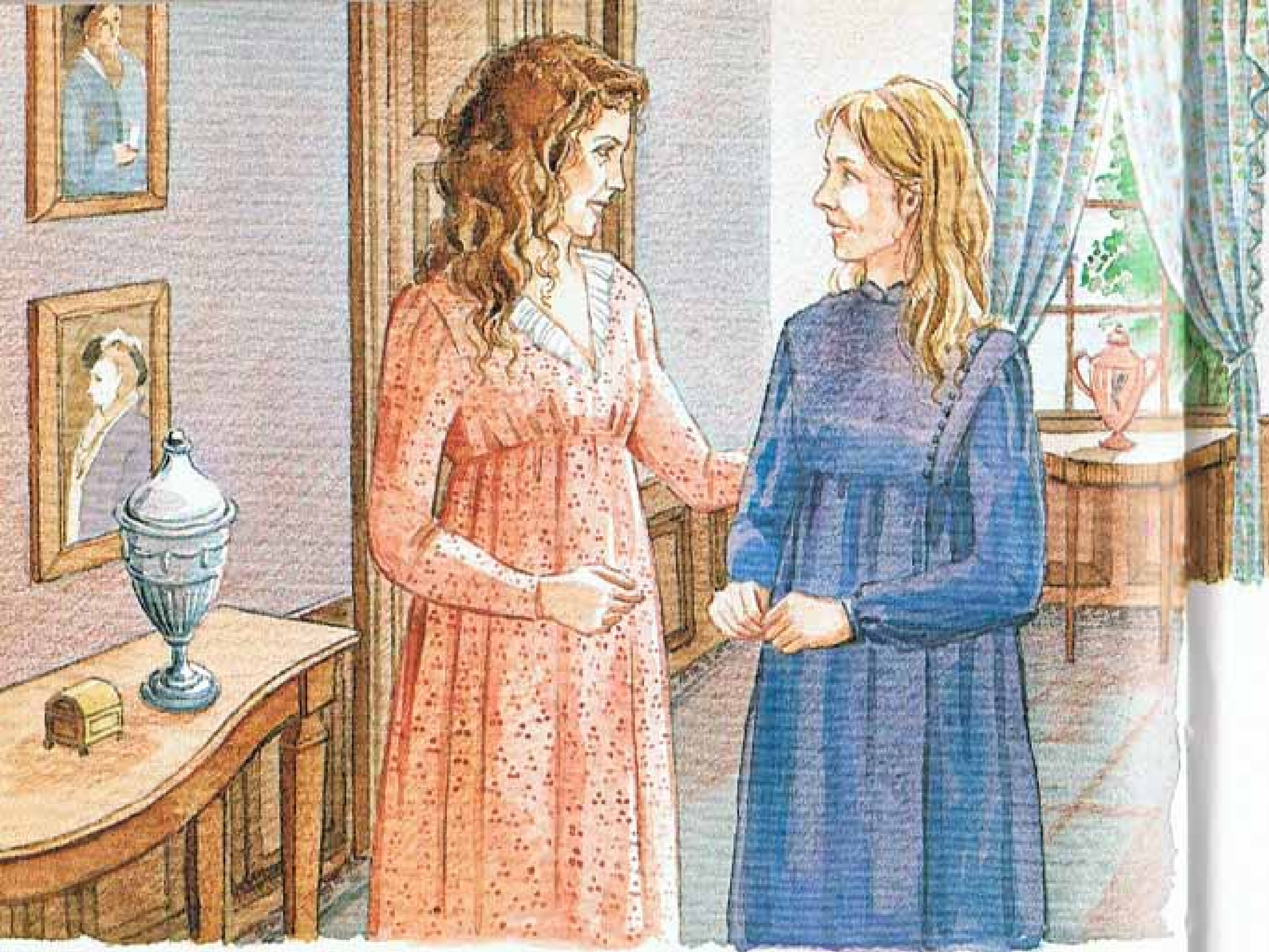
رَحَّبَتْ شيرلي بِزائِرَيْها بِحَرارَةٍ قائِلَةً: «كُنْتُ أَتَوَقَّعُ زِيارَتَكَ يا سَيِّدُ هلْستون. أَظُنُّ أَنَّ الآنِسَةَ هِيَ ابْنَتُكَ؟» فَأَجابَ مُوضِحًا: «إِنَّها ابْنَةُ أَخي، كارولين.»

نَظَرَتْ شيرلي إِلى كارولين نَظَراتٍ فاحِصَةً ثُمَّ سَأَلَتْها: «كَمْ عُمْرُكِ يا كارولين؟»

فَأَجابَتْها كارولين: «إِنَّني في الثّامِنَةَ عَشْرَةَ.»

وقالَتْ شيرلي: «أَمّا أَنا فَفي الحادِيَةِ والعِشْرينَ. لٰكِنَّكِ تَبْدينَ شاحِبَةً وتَعِبَةً يا كارولين. هَلْ أَنْتِ دائِمًا بِهٰذا الشُّحوبِ؟»

تَدَخَّلَ السَّيِّدُ هلْستون قائِلاً: «كَلاّ، بَلْ هِيَ – عادَةً – مُتَوَرِّدَةُ الوَجْنَتَيْنِ، وهٰذا التَّبَدُّلُ في صِحَّتِها حَديثٌ. إِنَّها بِحاجَةٍ إِلى قِسْطٍ مِنَ الرّاحَةِ أَوْ إِلى تَغْييرِ المُناخِ. إِنّي أُفَكِّرُ بِالانْتِقالِ بِها إِلى شاطِئِ البَحْرِ قَريبًا.»



وقالَتْ شيرلي: «بِما أَنّي باقِيَةٌ هُنا فَأَتَمَنّى أَنْ أَراها مِرارًا. لَقَدْ بَدَأْتُ بِالتَّعَرُّفِ إِلى جيراني وبِصورَةٍ خاصَّةٍ إِلى السَّيِّدِ مور الَّذي قابَلْتُهُ مَرّاتٍ عَديدَةً في لِقاءاتِ عَمَلٍ. إِنّي أَمْلِكُ الأَرْضَ التي يَقومُ عَلَيْها مَصْنَعُهُ، فَالسَّيِّدُ مور مُسْتَأْجِرٌ عِنْدي.» وأَرْدَفَتْ ضاحِكَةً: «وبِما أَنّي جِئْتُ الآنَ لِأَتَوَلّى أَمْرَ مُمْتَلَكاتي، يُمْكِنُني أَنْ أَعْتَبِرَ نَفْسي رَجُلَ أَعْمالٍ، وأَعْتَرِفُ بِأَنّي مُعْجَبَةٌ بِجارِكُما السَّيِّدِ مور وبِتَصْميمِهِ عَلى نَجاحِ المَصْنَعِ.»

فَقالَ السَّيِّدُ هلْستون بِجَفاءٍ: «لَقَدْ وَضَعْتُ حَدًّا لِعَلاقاتي مَعَ السَّيِّدِ مور، فَسِياسَتُهُ هِيَ مُجَرَّدُ سِياسَةِ تاجِرٍ أَنانِيٍّ وغَيْرِ وَفِيٍّ لِبَلَدِهِ.»

عَلَّقَتْ كارولين عَلى هٰذا الكَلامِ قائِلَةً: «إِنَّهُ عَلى الأَقَلِّ رَجُلٌ شَهْمٌ.»

فَقالَتْ شيرلي، وقَدْ أَلْقَتْ عَلى كارولين نَظْرَةً فاحِصَةً: «وهُوَ كَذٰلِكَ! أَرى يا كارولين أَنَّكِ صَديقَتُهُ!»

كانَتْ شيرلي كيلْدار، وَرِيثَةُ فيلدهِد، مَرِحَةَ المِزاجِ وتَتَمَتَّعُ بِشَخْصِيَّةٍ لامِعَةٍ. فَما لَبِثَتْ أَنْ تَعَرَّفَتْ إلى مُعْظَمِ سَيِّداتِ وفَتَياتِ المِنْطَقَةِ، إلّا أَنَّها خَصَّتْ كارولين بِصَداقَةٍ مُمَيَّزَةٍ. فَكانَتا تَقومانِ بِنُزُهاتٍ في المِنْطَقَةِ بِرِفْقَةِ كَلْبِ شيرلي الأَمينِ «تارتر». وسُرْعانَ ما اكْتَشَفَتا حُبَّهُما المُشْتَرَكَ والعَميقَ لِمِنْطَقَةِ يوركْشِر. وفي يَوْمٍ مِنْ شَهْرِ أَيّارَ (مايو)، قامَتا بِنُزْهَةٍ طَويلَةٍ إلى التِّلالِ والوُدْيانِ حامِلَتَيْنِ وَجْبَةَ الغَداءِ لِتَتَناوَلا طَعامَهُما في الهَواءِ الطَّلْقِ.

تَوَقَّفَتا عَلى قِمَّةِ تَلَّةٍ عالِيَةٍ، ونَظَرَتا إلى الوادي العَميقِ في الأَسْفَلِ، حَيْثُ تَبَرْعَمَتْ أَزْهارُ الرَّبيعِ وأَزْهَرَتِ الأَشْجارُ. ولَفَتَ نَظَرَهُما حَقْلٌ واسِعٌ مُرَصَّعٌ بِأَزْهارِ اللُّؤْلُؤِيَّةِ الصُّغْرى المُتَواضِعَةِ ومُزَخْرَفٌ بِأَزْهارِ الحَوْذانِ الذَّهَبِيَّةِ. وقَدْ أَحاطَتْ حَلَقاتٌ مِنْ زَهْرَةِ الرَّبيعِ وحُرْفِ الماءِ بِالأَمْواجِ وكَأَنَّها إطارٌ لِتِلْكَ اللَّوْحَةِ الطَّبيعِيَّةِ، وبَعيدًا بَدَتِ التِّلالُ مُزَرْكَشَةً بِاللَّوْنِ الأَزْرَقِ الهادِئِ وبِاللَّوْنِ الأُرْجُوانِيِّ الزّاهي. وهَبَّ هَواءٌ عَليلٌ ومُنْعِشٌ جَعَلَ السُّحُبَ البَيْضاءَ تَعْدو في السَّماءِ، فَغَمَرَتِ الفَتاتَيْنِ غِبْطَةٌ لا تُوصَفُ.

لَمْ تَرْتَبِطْ شيرلي وَحْدَها بِصَداقَةٍ حَميمَةٍ مَعَ كارولين، فَالسَّيِّدَةُ برايور –المُرَبِّيَةُ السّابِقَةُ لِشيرلي– هِيَ أَيْضًا اهْتَمَّتْ بِكارولين اهْتِمامًا كَبيرًا. وهٰذا تَصَرُّفٌ نادِرٌ بِالنِّسْبَةِ لِلسَّيِّدَةِ برايور المَعْروفَةِ بِتَحَفُّظِها في اخْتِيارِ عَلاقاتِها الاجْتِماعِيَّةِ. وهٰكَذا كانَتْ صَديقَتا كارولين الجَديدَتانِ تُرَحِّبانِ بِزِياراتِها المُتَكَرِّرَةِ إلى فيلدهِد. وقَدْ بَرْهَنَتِ السَّيِّدَةُ برايور –بِصِفَتِها مُرَبِّيَةً سابِقَةً– عَلى أَنَّها قادِرَةٌ أَنْ تَكونَ صَديقَةَ كارولين بَلْ مُرْشِدَتَها.

واصَلَتْ كارولين نُزُهاتِها المَسائِيَّةَ بِاتِّجاهِ هولو باحِثَةً عَنِ الأَنْوارِ في نافِذَةِ المَنْزِلِ الصَّغيرِ أَوْ مُتَرَقِّبَةً عَوْدَةَ روبِرْت مِنْ نُزْهَةٍ ما. وذاتَ مَساءٍ، في ظُلْمَةِ الغَسَقِ، شاهَدَتْ كارولين وَجْهَ شيرلي بِوُضوحٍ وهِيَ تَتَنَزَّهُ بِرِفْقَةِ شَخْصٍ طَويلِ القامَةِ هو روبِرْت مور بِالذّاتِ. فَغادَرَتْ كارولين المَكانَ صامِتَةً، واتَّجَهَتْ نَحْوَ مَنْزِلِها، حَزينَةً وهِيَ تَحْبِسُ دُموعَها. وما لَمْ تَعْرِفْهُ كارولين هُوَ أَنَّ شيرلي وروبِرْت كانا يَتَشاوَرانِ بِشَأْنِ التَّرْتيباتِ المُتَعَلِّقَةِ بِالدِّفاعِ عَنِ المَصْنَعِ في حالِ حُدوثِ اعْتِداءٍ مِنْ قِبَلِ العُمّالِ المُشاغِبينَ.



في مَساءِ اليَوْمِ التّالي قامَتْ كارولين بِزِيارَةِ شيرلي في فيلدهِد. وعِنْدَ دُخولِها قاعَةَ الجُلوسِ سَأَلَتْها السَّيِّدَةُ پرايور عَنْ سَبَبِ شُحوبِ وَجْهِها.

فَقالَتْ كارولين: «لَمْ أَنَمْ نَوْمًا مُريحًا، وأَشْعُرُ بِالكَآبَةِ.»

أَجابَتِ السَّيِّدَةُ پرايور قائِلَةً: «أَنْتِ بِحاجَةٍ إلى المَزيدِ مِنَ الحَرَكَةِ والهَواءِ الطَّلْقِ.»

– إنَّني أَتَنَزَّهُ وأَمْشي كَثيرًا في هٰذِهِ الأَيّامِ!



– إذًا، قَدْ تكونينَ بِحاجَةٍ إلى السَّفَرِ لِبَعْضِ الوَقْتِ.

– أَنْتِ مُصيبَةٌ؛ هٰذا ما أَنا بِحاجَةٍ إِلَيْهِ بِالضَّبْطِ! أَوَدُّ أَنْ أُصْبِحَ مِثْلَكِ مُرَبِّيَةً، ولٰكِنْ بَعيدًا عَنِ المِنْطَقَةِ.

– لا أَظُنُّكِ قَوِيَّةَ البِنْيَةِ بِما فيهِ الكِفايَةُ كَيْ تَتَحَمَّلي مَشَقّاتِ هٰذِهِ الوَظيفَةِ، يا عَزيزَتي، فَعَمَلُ المُرَبِّيَةِ شاقٌّ ومُضْنٍ.

– وهٰذا بِالضَّبْطِ ما أَحْتاجُهُ. فَحالَتي هٰذِهِ لا تُعالَجُ إلّا بِالانْشِغالِ المُتَواصِلِ.

وقاطَعَتْها شيرلي قائِلَةً: «لٰكِنَّني لَمْ أَرَ في حَياتي شَخْصًا مُجِدًّا مِثْلَكِ، فَأَنْتِ دائِمَةُ الحَرَكَةِ! ولا أَظُنُّ أَنَّكِ سَتَشْعُرينَ بِالرّاحَةِ وَسْطَ الغُرَباءِ. إنَّ الحَياةَ التي تُفَكِّرينَ بِها لا تُناسِبُكِ أَبَدًا، فَكُفّي عَنْ ذِكْرِها أَمامي. ولٰكِنْ لَدَيَّ فِكْرَةٌ: لِمَ لا تَقومينَ مَعي بِرِحْلَةٍ إلى مِنْطَقَةِ البُحَيْراتِ الإنْكليزِيَّةِ أَو إلى إسْكُتْلندا؟» وتابَعَتْ مازِحَةً: «سَتَصْطَحِبينَ الكابِتِن كيلْدار، سَنَزورُ المُرْتَفَعاتِ الشَّمالِيَّةَ وجُزُرَ هبرديز ونُشاهِدُ مَعالِمَ إسْكُتْلندا. أَنا مُتَأَكِّدَةٌ مِنْ مُوافَقَةِ السَّيِّدَةِ برايور عَلى هٰذِهِ الفِكْرَةِ.»

فَارْتَفَعَتْ مَعْنَوِيّاتُ كارولين عَلى الفَوْرِ، وقَضَتِ الصَّديقَتانِ نِصْفَ ساعَةٍ مِنَ المَرَحِ تُخَطِّطانِ لِنُزُهاتٍ وتَحْلُمانِ بِالبَحْرِ والبُحَيْراتِ والجِبالِ والجُزُرِ الخَلّابَةِ.

وَصَلَ روبرْت مِنْ دونِ سابِقِ إنْذارٍ، وبَدا مَليئًا بِالنَّشاطِ والحَيَوِيَّةِ كَأَنَّهُ قَدْ جَدَّدَ أَمَلَهُ في الحَياةِ.. وبَعْدَ تَبادُلِ التَّحِيّاتِ، تَحَدَّثَ عَمّا جَرى في المَصْنَعِ مُوَجِّهًا كَلامَهُ إلى شيرلي بِصورَةٍ خاصَّةٍ. قالَ: «إنّي آتٍ لِلتَّوِّ مِن ستيل بورو. لَقَدِ اجْتَمَعْتُ بِقائِدِ الثُّكْنَةِ وهُوَ يُوافِقُ عَلى التَّرْتيباتِ الّتي اتَّخَذْناها لِلدِّفاعِ عَنِ المَصْنَعِ، ويَقْتَرِحُ تَزْويدَنا بِعَدَدٍ مِنَ الجُنودِ، يَفوقُ حاجَتَنا في الواقِعِ. فَقُلْتُ لَهُ إنّي أَكْتَفي بِسِتَّةِ جُنودٍ، لِأَنَّ مُجَرَّدَ وُجودِهِمْ كافٍ، بِالإضافَةِ إلى اعْتِمادي عَلى مُؤَيِّدِيَّ مِنَ المَدَنِيِّينَ.. لَقَدْ شَدَّدَ وَزيرُ الدّاخِلِيَّةِ عَلى وُجوبِ تَحَرُّكِ أَصْحابِ المَصانِعِ لِتَجَنُّبِ تَكْرارِ الاضْطِراباتِ الّتي جَرَتْ في نوتنغهام ومانشستر وبرمنغهام.»

بَعْدَ تناوُلِ الشّايِ، راجَعَ روبرْت وشيرلي بَعْضَ المُسْتَنَداتِ، ثُمَّ جاءَت شيرلي بِبَعْضِ أَوْراقِ الحِساباتِ وناقَشَتْها مَعَ روبرْت. بَعْدَ ذلِكَ أَخَذَ الجَميعُ يَتَحَدَّثونَ بِارْتِياحٍ، وقَدْ أَوْلَى روبرْت كِلا الفَتاتَيْنِ اهْتِمامَهُ.

سَأَلَتْهُ كارولين: «كَيْفَ حالُ أورْتانس؟»

فَأَجابَ: «إِنَّها بِحالَةٍ جَيِّدَةٍ، لٰكِنَّها تَفْتَقِدُكِ كَثيرًا!»

قالَتْ: «أَرْجوكَ، أَخْبِرْها أَنّي أَيْضًا بِغايَةِ الشَّوْقِ إِلَيْها!»

في التّاسِعَةِ، رَأَتْ كارولين أَنَّ الوَقْتَ قَدْ حانَ لِلعَوْدَةِ إلى مَنْزِلِها. فَقالَ روبرْت: «سَأُرافِقُكِ بَعْدَ أَنْ أَصْرِفَ الخادِمَةَ.»

في الخارِجِ، أَخَذَ روبرْت بِيَدِ كارولين كَالمُعْتادِ وقالَ لَها: «لَسْتِ اليَوْمَ بِخَيرٍ، تَبْدينَ شاحِبَةً وتَزْدادينَ نُحولاً! ما هِيَ مُشْكِلَتُكِ؟» فَقالَتْ كارولين: «لا شَيْءَ.»

وَأَرْدَفَ روبرْت قائِلاً: «عَلى كُلِّ حالٍ. لَنْ تَبوحي لي بِشَيْءٍ؛ يَبْدو أَنَّني لَمْ أَعُدْ أَحْظَى بِثِقَتِكِ. لَقَدْ مَضَى شَهْرانِ عَلى زِيارَتِكِ الأَخيرَةِ!»

قالَتْ كارولين: «أَجَلْ. ولٰكِنّي كُنْتُ أُشاهِدُكَ مِرارًا أَثْناءَ نُزْهَتي المَسائِيَّةِ. لَقَدْ لَمَحْتُكَ والسَّيِّدَ يورْك مَرَّةً.» ثُمَّ تابَعَتْ بِلَهْجَةٍ حادَّةٍ: «ورَأَيْتُكَ أَيْضًا بِرِفْقَةِ الآنِسَةِ كيلْدار.»

وتَوَقَّفَتْ كارولين عَلى مَقْرُبَةٍ مِنْ مَنْزِلِ عَمِّها الكاهِنِ وقالَتْ: «عَلَيْنا أَنْ نَفْتَرِقَ الآنَ يا روبرْت! فَعَمّي عَلى وَشْكِ أَنْ يَعودَ مِنْ نُزْهَةِ المَساءِ.»

أَخَذَ روبرْت يَدَ كارولين وطَبَعَ عَلَيْها قُبْلَةً رَقيقَةً قائِلاً: «إلى اللِّقاءِ يا كاري»، ومِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْظُرَ إلى الوَراءِ تابَعَ طَريقَهُ نَحْوَ بَيْتِهِ.

عِنْدَما خَلَتْ كارولين بِنَفْسِها في غُرْفَتِها، أَخَذَتْ أَفْكارُها تَدورُ حَوْلَ روبرْت ولٰكِنَّها تَمالَكَتْ نَفْسَها وفَكَّرَتْ: «عَلَيَّ أَنْ أَضَعَ حَدًّا لِأَحْلامِ الحُبِّ، فَإِنّي أَعْلَمُ، في صَميمِ قَلْبي، أَنَّهُ سَيَتَزَوَّجُ مِنْ شيرلي.»

اِسْتَيْقَظَتْ كارولين في صَباحِ اليَوْمِ التّالي كَئيبَةً، حَزينَةً. فَقَدْ أَيْقَنَتْ أَنَّ قَدَرَ روبرْت



وشيرلي أَنْ يُصْبِحا زَوْجَيْنِ. وفَكَّرَتْ أَنَّ أَفْضَلَ ما تَفْعَلُهُ هُوَ الرَّحيلُ.

بَعْدَ الظُّهْرِ زارَتْها شيرلي، وسَأَلَتْها عَنْ سَبَبِ عَدَمِ مَجيئِها في الصَّباحِ كَالمُعْتادِ. فَقالَتْ: «إِعْذِريني يا شيرلي. كُنْتُ مُتَعَكِّرَةَ المِزاجِ!»

– أَظُنُّ أَنَّ مَنْ رافَقَكِ البارِحَةَ إلى بَيْتِكِ هُوَ المَسْؤولُ عَنْ هٰذا الاكْتِئابِ، فَغالِبًا ما يَتَفَوَّهُ بِكَلامٍ تافِهٍ وهُوَ مُتَسَلِّطٌ ومَغْرورٌ. إِنّي أَكْرَهُهُ لِأَنَّهُ يُعَكِّرُ صَفْوَ صَداقَتِنا!

– لا! يا شيرلي، صَداقَتُنا لَيْسَتْ في خَطَرٍ. إِنّي أَزْدادُ تَعَلُّقًا بِكِ كُلَّ يَوْمٍ، فَلا شَيْءَ قادِرٌ على إِفْسادِ هٰذِهِ الصَّداقَةِ!

قالَتْ شيرلي: «يُريحُني أَنْ أَسْمَعَ هٰذا الكَلامَ يا كارولين! لِنَنْسَ المَوْضوعَ ونَتَحَدَّثْ عَنْ شَيْءٍ آخَرَ. مِمّا يُقْلِقُني فَقْرُ العاطِلينَ عَنِ العَمَلِ وبُؤْسُهُمْ وإِنّي أُفَكِّرُ بِالقِيامِ بِعَمَلٍ إِيجابِيٍّ لِمُساعَدَتِهِمْ. لَقَدْ طَلَبْتُ مِنَ الآنِسَةِ أَيْنلي أَنْ تَأْتِيَ يَوْمَ غَدٍ إلى فيلدهِد وتُزَوِّدَني بِبَعْضِ النَّصائِحِ. فَهِيَ تَعْرِفُ الأَشْخاصَ الَّذينَ يَشْكونَ مِنْ ضيقٍ مادِّيٍّ، وبِإِمْكانِها أَنْ تُساعِدَني. وسَأَطْلُبُ مِنْ كَهَنَةِ المِنْطَقَةِ الثَّلاثَةِ الحُضورَ أَيْضًا.»

دَعَتْ شيرلي الدُّكْتورَ بولْتبي كاهِنَ وِنْبُري، والسَّيِّدَ هلْستون كاهِنَ برايرفيلد، والسَّيِّدَ هُول كاهِنَ نانلي. وهٰذا الأَخيرُ هُوَ المُفَضَّلُ لَدى كارولين لِأَنَّها تَعْرِفُهُ مُنْذُ طُفولَتِها.

أَدارَتْ شيرلي الاجْتِماعَ بِفاعِلِيَّةٍ، وقَدْ ساهَمَ كُلٌّ مِنْهُمْ بِخَمْسينَ جُنَيْهًا إِنْكليزِيًّا في صُنْدوقِ شيرلي المُخَصَّصِ لِلأَعْمالِ الخَيْرِيَّةِ. أَمّا شيرلي فَقَدَّمَتْ ثَلاثَمِئَةِ جُنَيْهٍ.

بَعْدَ تَثْبيتِ دَعائِمِ المَشْروعِ الخَيْرِيِّ، دَعَتْ شيرلي ضُيوفَها إلى مَأْدُبَةٍ عامِرَةٍ نالَتْ عَلَيْها شُكْرَ المَدْعُوِّينَ وإِطْراءَهُمْ، وعَلَّقوا قائِلينَ إِنَّ هٰذا ما كانوا يَتَوَقَّعونَهُ مِنْ قِبَلِ «قائِدِهِم» الكابْتِن كيلْدار.

اِزْدَهَرَتْ مُؤَسَّسَةُ شيرلي الخَيْرِيَّةُ وعَمِلَ مُساعِدوها بِكَدٍّ لإِعانَةِ مَنْ هُمْ بِأَمَسِّ حاجَةٍ إلى المُساعَدَةِ. وبَدَتِ المِنْطَقَةُ أَكْثَرَ هُدوءًا إِثْرَ تَمْوينِ أَفْقَرِ العائِلاتِ بِالوَقودِ والطَّعامِ واللِّباسِ. فَشَعَرَتْ شيرلي أَنَّ الشِّجارَ بَيْنَ أَصْحابِ المَصانِعِ والعُمّالِ سَيَتَوَقَّفُ، عَلى الأَقَلِّ بِصورَةٍ مُؤَقَّتَةٍ.



ذاتَ مَساءٍ دافِئٍ وصافٍ، بَيْنَما كانَتْ كارولين وشيرلي تَتَجَوَّلانِ في الحُقولِ ومَعَهُما تارتر، صادَفَتا وِلْيَم فارن يَصْطَحِبُ ثَلاثَةً مِنْ أَوْلادِهِ في نُزْهَةٍ. أَخْبَرَهُما أَنَّهُ مَسْرورٌ بِعَمَلِهِ في حَديقَةِ السَّيِّدِ يورْك. ولَمْ يُخْفِ خُصومَتَهُ لِلسَّيِّدِ مور، إذْ قالَ: «إِنَّهُ مُتَحَجِّرُ القَلْبِ، والجَميعُ يَكْرَهونَهُ.»

رَدَّتْ كارولين قائِلَةً: «لا، لَيْسَ كَلامُكَ مُنْصِفًا. إِنَّهُ فَقَطْ يُحاوِلُ تَأْمينَ نَجاحِ المَصْنَعِ!» فَأَجابَ فارِن: «قَدْ يَكونُ هٰذا صَحيحًا، ولٰكِنْ بِاسْتِطاعَتِهِ تَحْقيقُ ما يَرْمي إِلَيْهِ بِالتَّخَلُّصِ مِنَ الآلاتِ الحَديثَةِ واسْتِخْدامِ المَزيدِ مِنَ العُمّالِ.» وقالَتْ كارولين: «لا، فَبِهٰذِهِ الطَّريقَةِ يَتَخَلَّفُ المَصْنَعُ، وهٰذا لَيْسَ لِمَصْلَحَةِ أَحَدٍ.»

وتابَعَتِ الفَتاتانِ طَريقَهُما وقَدْ أَظْهَرَتا بَعْضَ الإِعْجابِ بِإِخْلاصِ فارِن لِمَبادِئِهِ.

عِنْدَ بُلوغِهِما مَنْزِلَ القِسّيسِ هِلْستون، أَعْلَنَ أَنَّهُ سَيَبيتُ خارِجَ المَنْزِلِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ لِأَنَّ عَلَيهِ أَنْ يَزورَ صَديقًا في مِنْطَقَةٍ بَعيدَةٍ. وقالَ: «أَنْتِ مَسْؤولَةٌ عَنِ المَنْزِلِ في غِيابي يا كارولين. وسَتَبْقَى الخادِماتُ مَعَكِ؛ عَلَيْكِ أَنْ تَتَأَكَّدي مِنْ إِقْفالِ المَنْزِلِ إِقْفالاً مُحْكَمًا. فَالوَضْعُ قَدْ يَتَدَهْوَرُ. لَقَدْ تَعَدّى مُؤَخَّرًا مُثيرو الشَّغَبِ على عَدَدٍ مِنَ المَنازِلِ!»

فَهَتَفَتْ شيرلي: «لا عَلَيْكَ! أَنْتَ بِحاجَةٍ إلى رَجُلٍ مِقْدامٍ يَأْخُذُ بِزِمامِ الأُمورِ يا سَيِّدُ هِلْستون. أَرْجوكَ، افْسَحِ المَجالَ لِلكابْتِن كيلْدار لِتَسَلُّمِ القِيادَةِ!»

أَجابَ القِسّيسُ: «عَلى الرَّحْبِ والسَّعَةِ، سَأُبَلِّغُ السَّيِّدَةَ پرايور عَنْ عَدَمِ عَوْدَتِكِ مَعَ تارتر إلى فيلدهِد هٰذِهِ اللَّيْلَةَ!»

قالَتْ شيرلي بِحَماسٍ، وقَدْ أَثارَتْها المَسْؤولِيّاتُ: «هٰذا جَيِّدٌ! لٰكِنَّنا بِحاجَةٍ إلى بَعْضِ الأَسْلِحَةِ لِلدِّفاعِ عَنْ أَنْفُسِنا إذا ما اقْتَضَى الأَمْرُ!»

قالَ السَّيِّدُ هِلْستون: «أَجَلْ، سَتَجِدانِ في غُرْفَةِ الطَّعامِ سِكّينًا مَشْحوذَةً ومُسَدَّسَيْنِ مُلَقَّمَيْنِ بِالرَّصاصِ، ولٰكِنِ احْتَرِسا عِنْدَ اسْتِعْمالِ هٰذِهِ الأَسْلِحَةِ!»

طَمْأَنَتْهُ شيرلي قائِلَةً: «لا تَقْلَقْ؛ إِنّي أُحْسِنُ اسْتِعْمالَ السِّلاحِ».

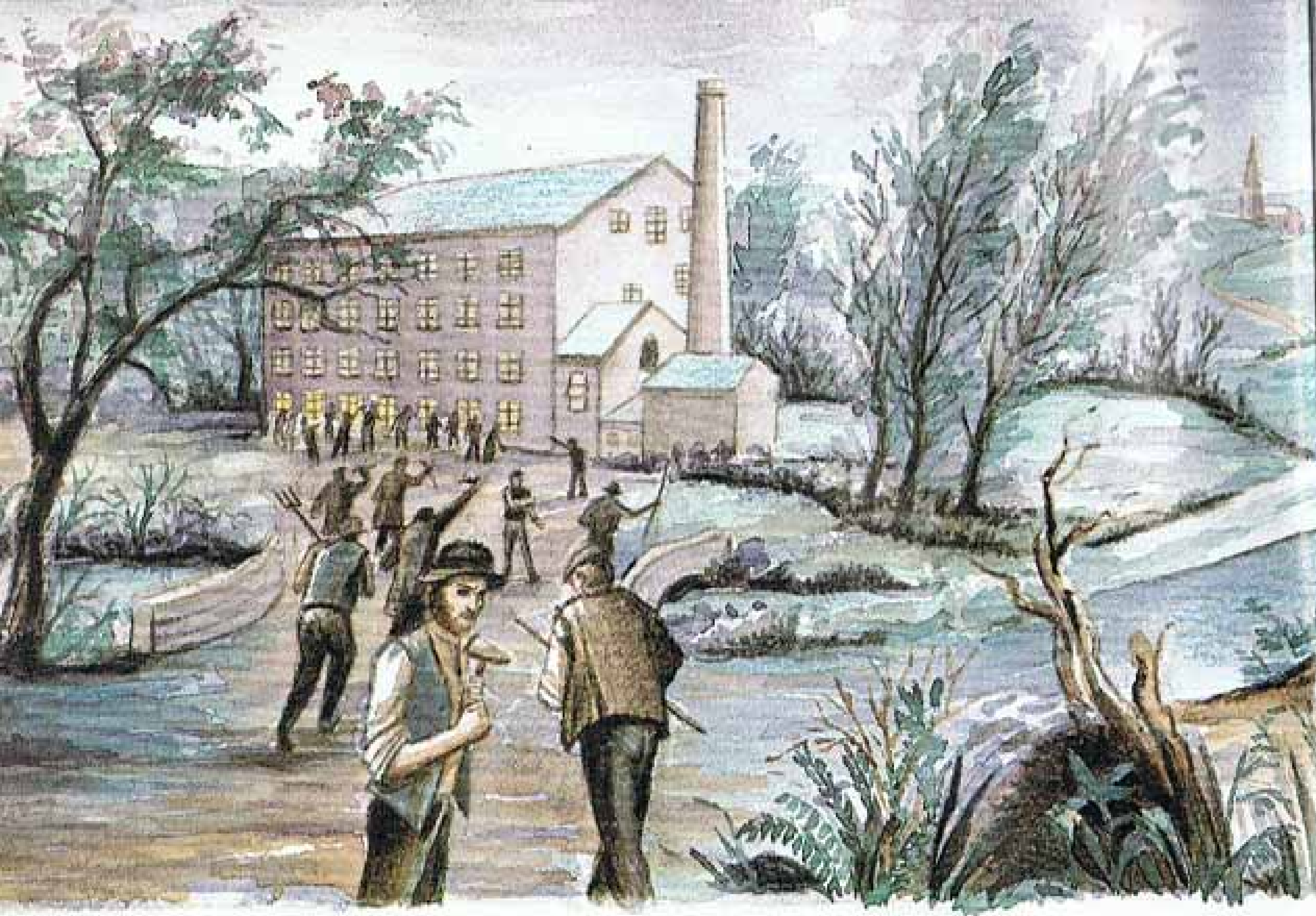


في تِلْكَ اللَّيْلَةِ، بَعْدَ أَنْ أَوَتِ الخادِماتُ إلى فِراشِهِنَّ، جَلَسَتْ شيرلي وكارولين قُرْبَ نافِذَةٍ مُشْرَعَةٍ، وقَدْ وَضَعَتا المُسَدَّسَيْنِ والسِّكّينَ قُرْبَهُما. في نَحْوِ السّاعَةِ الثّانِيَةَ عَشْرَةَ نَبَحَ تارتر في المَطْبَخِ. وسَمِعَتِ الفَتاتانِ وَقْعَ أَقْدامٍ وأَصْواتًا قَريبَةً. إِسْتَنْتَجَتا مِنَ القَليلِ الّذي وَصَلَ إلى مَسْمَعِهِما أَنَّ جَماعَةً كانوا يَتَهَيَّؤونَ لِاقْتِحامِ المَنْزِلِ، وفَجْأَةً سَقَطَتْ بُنْدُقِيَّةُ أَحَدِ الرِّجالِ مُحْدِثَةً صَوْتًا جَعَلَ الكَلْبَ يَنْبَحُ. ولَمّا أَدْرَكَ المُعْتَدونَ أَنَّ أَهْلَ المَنْزِلِ قَدْ تَنَبَّهوا لِوُجودِهِمْ غادَروا المَكانَ واتَّجَهوا نَحْوَ المَصْنَعِ.

هَمَسَتْ كارولين: «الحَمْدُ لِلّهِ! لٰكِنْ ماذا سَيَحِلُّ بِأَصْحابِنا في المَصْنَعِ؟ يَجِبُ أَنْ نُنَبِّهَهُمْ. أَعْرِفُ طَريقًا قَصيرَةً عَبْرَ الحُقولِ، بِإِمْكانِنا بُلوغُ المَصْنَعِ قَبْلَهُمْ إِذا أَسْرَعْنا!»

اِنْطَلَقَتِ الفَتاتانِ بِسُرْعَةٍ مُتَسَلِّقَتَيْنِ الجُدْرانَ، عابِرَتَيْنِ بَيْنَ الأَسْوارِ وفَوْقَ الجَداوِلِ. وعِنْدَ اقْتِرابِهِما مِنَ المَصْنَعِ سَمِعَتا صَوْتَ طَلْقَةٍ نارِيَّةٍ.

قالَتْ كارولين بِصَوْتٍ خافِتٍ: «لَقَدْ فاتَ الأَوانُ، وتَمَرْكَزَ المُعْتَدونَ. سَأُحاوِلُ الدُّخولَ مِنَ الخَلْفِ!»



قالَتْ شيرلي بِلَهْجَةٍ قاطِعَةٍ: «لا. إِنَّكِ سَتُعَرْقِلينَ الأُمورَ! أُتْرُكي العاطِفَةَ جانِبًا يا كارولين. لَيْسَ لَدى روبرت الآنَ وَقْتٌ لِلاهْتِمامِ بِكِ، وهُوَ لَيْسَ وَحيدًا. في الدّاخِلِ حَشْدٌ مِنَ الرِّجالِ، بَيْنَهُمْ بِضْعَةُ جُنودٍ. لَقَدْ لَمَحْتُ أَحَدَهُمْ عَبْرَ النّافِذَةِ.»

عِنْدَئِذٍ سُمِعَ صَوْتُ تَحْطيمِ خَشَبٍ، فَالمُشاغِبونَ كانوا يُحَطِّمونَ البَوّابَةَ الخارِجِيَّةَ مُحاوِلينَ الدُّخولَ إلى ساحَةِ المَصْنَعِ. فَإِذا بِالبابِ الخارِجِيِّ يَنْهارُ، وَسْطَ جَلَبَةٍ صاخِبَةٍ. وتَدَفَّقَ المُهاجِمونَ إلى الباحَةِ، مُسَلَّحينَ بِالقُضْبانِ الحَديدِيَّةِ والفُؤوسِ والمُسَدَّساتِ والبَنادِقِ، مُصَمِّمينَ عَلى اقْتِحامِ المَصْنَعِ.

أَطْلَقَ المُعْتَدونَ وابِلًا مِنَ الرَّصاصِ بِاتِّجاهِ المَصْنَعِ لِتَغْطِيَةِ بَعْضِ المُهاجِمينَ المُتَّجِهينَ بِسُرْعَةٍ نَحْوَ البابِ. وفي هٰذِهِ اللَّحْظَةِ أَطْلَقَ المُدافِعونَ النّارَ، فَسَقَطَ خَمْسَةٌ أَوْ سِتَّةٌ مِنَ المُهاجِمينَ بَيْنَ قَتيلٍ وجَريحٍ. عِنْدَئِذٍ أَرْسَلَ المُهاجِمونَ عَدَدًا مِنَ الرِّجالِ إلى خَلْفِ المَصْنَعِ لِلدُّخولِ مِنْ غُرْفَةِ المُحاسَبَةِ، لٰكِنَّهُمْ لاقَوْا هُناكَ أَيْضًا مُقاوَمَةً ضارِيَةً. فَما لَبِثوا أَنْ أَيْقَنوا أَنَّ مُحاوَلَةَ الاقْتِحامِ قَدْ فَشِلَتْ، فَانْسَحَبوا، تارِكينَ وَراءَهُمْ إِصاباتِهِمْ.

خَيَّمَ على المَكانِ سُكونٌ مَهيبٌ. ثُمَّ انْفَتَحَ البابُ وخَرَجَ مِنْهُ روبرْت مور والسَّيِّدُ هلْستون. وكانَ الفِناءُ مُغَطًّى بِقِطَعِ القَرْميدِ والأَحْجارِ والزُّجاجِ المُحَطَّمِ، وكانَتْ أَجْسادُ القَتْلى والجَرْحى مَطْروحَةً هُنا وهُناكَ. شَقَّ روبرْت طَريقَهُ إلى المِضَخَّةِ لِيَغْسِلَ أَثَرَ الدِّماءِ عَنْ جَبينِهِ. وعِنْدَما رَأَتْ كارولين ذٰلِكَ، مِنْ مَخْبَئِها، صَرَخَتْ: «عَلَيَّ أَنْ أَذْهَبَ إِلَيْهِ، فَهُوَ مُصابٌ!» لٰكِنَّ شيرلي قالَتْ بِلَهْجَةٍ حادَّةٍ: «الأَفْضَلُ أَنْ نَرْحَلَ.»

اِقْتَنَعَتْ كارولين، ولٰكِنْ قَبْلَ أَنْ تُغادِرا المَكانَ شاهَدَتا السَّيِّدَ مور والكاهِنَ يُسْعِفانِ الجَرْحى بِقَدْرِ المُسْتَطاعِ بَعْدَ أَنْ أَرْسَلا جو سكوت لِيَأْتِيَ بِالطَّبيبِ.

قالَتْ شيرلي مُصِرَّةً على مُغادَرَةِ المَكانِ: «تَعالَيْ، لَقَد رَأَيْنا كَيْفَ انْتَصَروا، ومِنَ المُسْتَحْسَنِ أَلَّا يَعْلَمَ الرِّجالُ بِمَجيئِنا إلى هُنا. لِنَنْتَظِرْ أَنْ يُخْبِرَنا روبرْت بِالقِصَّةِ يَوْمَ غَدٍ.»

في صَباحِ اليَوْمِ التّالي زارَ حيرام يورْك شيرلي وهُوَ يَغْلي غَيْظًا. لَقَدْ أَغْضَبَتْهُ الاسْتِعانَةُ بِالجُنودِ ضِدَّ العُمّالِ. وكانَ مُقْتَنِعًا تَمامًا بِصَوابِيَّةِ قَضِيَّتِهِمْ فَلامَ بِعُنْفٍ السَّيِّدَ مور والسَّيِّدَ هلْستون لِتَسَبُّبِهِما في المُشْكِلَةِ.

كانَ هٰذا – بِالنِّسْبَةِ لِشيرلي – أَكْثَرَ مِمّا تَتَحَمَّلُ، فَثارَ ثائِرُها وأَبْدَتْ رَأْيَها بِلا تَرَدُّدٍ، وأَفْهَمَتِ السَّيِّدَ يورْك أَنَّها تَلومُهُ على سِياسَتِهِ وبُغْضِهِ –بِشَكْلٍ عامٍّ– لِكُلِّ مَنْ يَتَمَتَّعُ بِالسُّلْطَةِ، وعَلى تَشَبُّثِهِ بِرَأْيِهِ الخاطِئِ. وعِلاوَةً على ذٰلِكَ، دافَعَتْ عَنْ روبرْت مور بِحَماسٍ.

أَمّا السَّيِّدُ يورْك فَقَدْ حافَظَ على رَباطَةِ جَأْشِهِ ووَقارِهِ، وعِنْدَما نَهَضَ لِلرَّحيلِ سَأَلَها بِبُرودَةٍ: «مَتى سَيَتِمُّ الزِّفافُ؟» فَقالَتْ شيرلي وقَدْ فاجَأَها السُّؤالُ: «زِفافُ مَنْ؟» وأَجابَ بِابْتِسامَةٍ خَبيثَةٍ: «زِفافُ روبرْت مور وشيرلي كيلْدار بِالطَّبْعِ!»

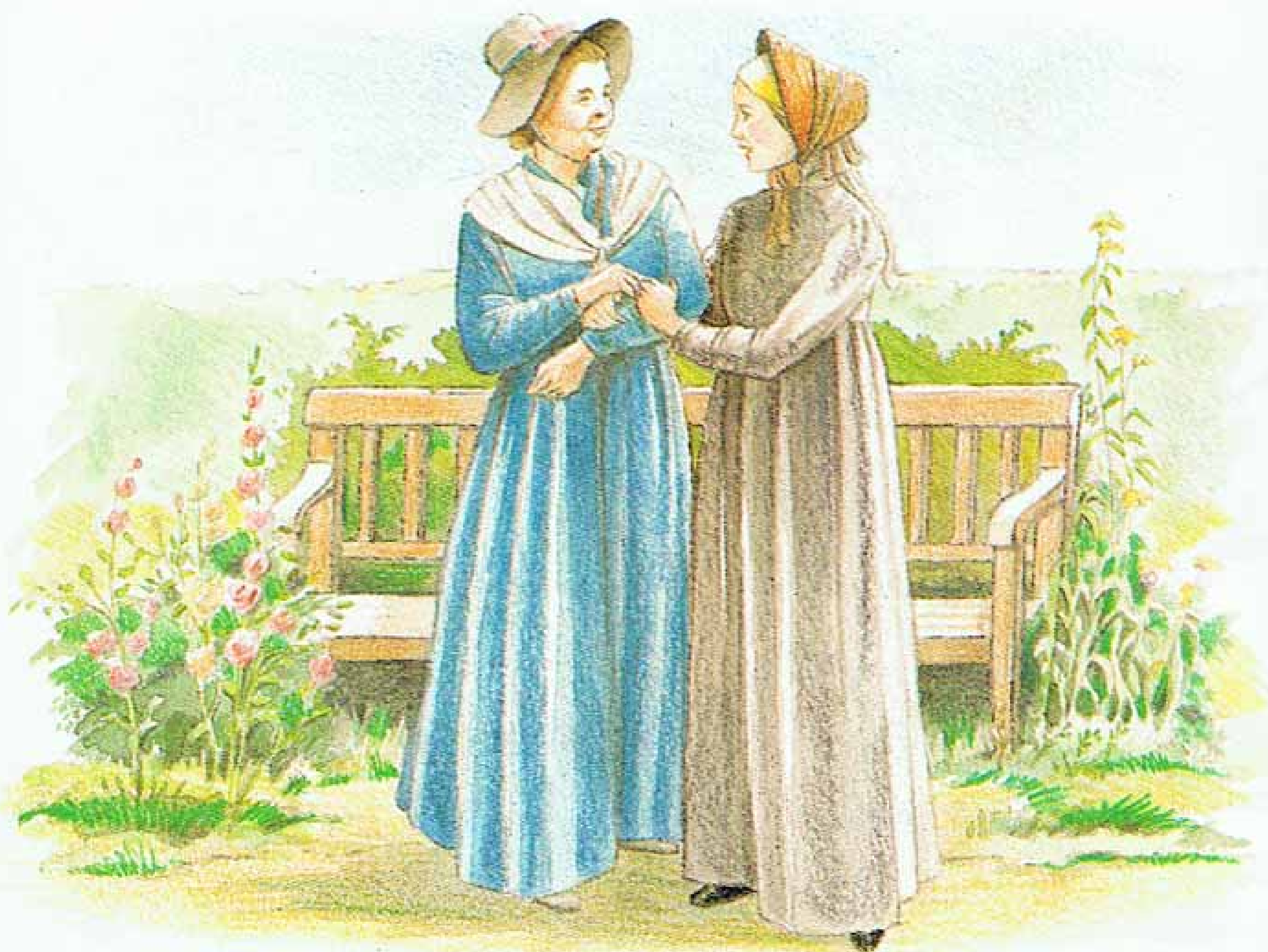
حَدَّقَتْ شيرلي إلى زائِرِها، وقَدْ ثارَ الدَّمُ في عُروقِها وانْعَقَدَ لِسانُها مِنْ شِدَّةِ الغَضَبِ. وتَجَنَّبَ السَّيِّدُ يورْك هُجومَها فَرَحَلَ فَوْرًا مِنْ دونِ أَنْ يَنْطِقَ بِكَلِمَةٍ.

في هٰذِهِ الأَثْناءِ كانَتْ كارولين تُطيلُ التَّفْكيرَ في وَضْعِها البائِسِ، وباتَتْ مُقْتَنِعَةً بِوُجوبِ مُغادَرَتِها المِنْطَقَةَ. فَبَحَثَتْ هٰذا المَوْضوعَ مَرَّةً أُخْرى مَعَ السَّيِّدَةِ برايور.

قالَتِ السَّيِّدَةُ برايور: «سَتَكْرَهينَ مِهْنَةَ المُرَبِّيَةِ، لِأَنَّها لا تُناسِبُكِ. عَلى الفَتاةِ الجَميلَةِ

مِثْلِكِ أَنْ تَسْعَى إلى الزَّواجِ. لكِنْ لا تَنْظُري إلى الزَّواجِ بِرومَنْسِيَّةٍ، لِأَنَّ هٰذِهِ الطَّريقَةَ تُؤَدّي حَتْمًا إلى خَيْبَةِ الأَمَلِ والتَّعاسَةِ. لَدَيَّ بَعْضُ المَوارِدِ المالِيَّةِ الخاصَّةِ، وأَنْوي أَنْ أَبْتاعَ بَيْتًا صَغيرًا وأَحْصُلَ عَلى اسْتِقْلالٍ تامٍّ عِنْدَما سَأَتْرُكُ شيرلي، أَوْ بِالأَحْرى عِنْدَما سَتَصْرِفُني. أَوَدُّ أَنْ نَعيشَ مَعًا، فَأَنْتِ تَعْلَمينَ مَدى حُبّي لَكِ، فَضْلاً عَنْ أَنَّنا نَبْدو مُتَّفِقَتَيْنِ في الطَّبْعِ والمِزاجِ. وبَعْدَ وَفاتي كُلُّ ما أَمْلِكُ سَيُصْبِحُ لَكِ.»

أَدْهَشَ هٰذا التَّصْريحُ كارولين فَرَدَّتْ قائِلَةً: «لَيْسَ لي حَقُّ المُطالَبَةِ بِشَيْءٍ يا سَيِّدَةُ پرايور.» فَقالَتِ السَّيِّدَةُ پرايور: «لا أَسْتَطيعُ الآنَ أَنْ أَبوحَ لَكِ بِكُلِّ شَيْءٍ يا كارولين. فَالماضي فاتَ، وآمُلُ أَنْ يَكونَ المُسْتَقْبَلُ مَليئًا بِالسَّعادَةِ.» وبَعْدَ أَنْ تَفَوَّهَتْ بِهٰذِهِ الكَلِماتِ لَمْ تَعُدْ تَتَمالَكُ نَفْسَها، فَأَجْهَشَتْ بِالبُكاءِ. وتَمَكَّنَتْ كارولين مِنْ تَهْدِئَتِها، غَيْرَ أَنَّ هٰذا الحَديثَ الغَريبَ الَّذي جَرى بَيْنَهُما أَوْقَعَها في حَيْرَةٍ.

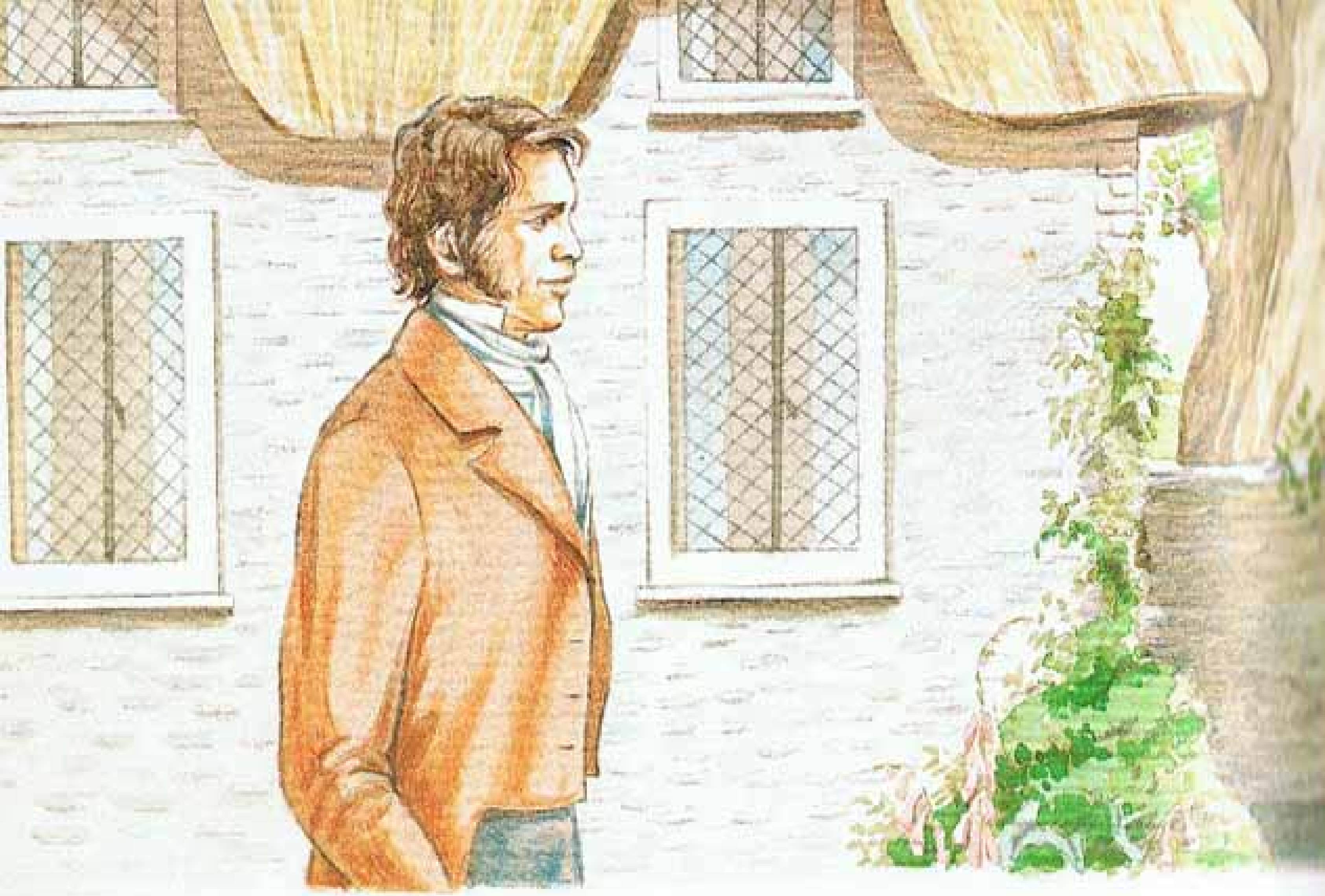




لَمْ تَنْسَ شيرلي مَشْروعَ الرِّحْلَةِ إلى مِنْطَقَةِ البُحَيْراتِ وإلى إسْكُتلندا مَعَ كارولين، ولٰكِنَّ هٰذِهِ الرِّحْلَةَ أُرْجِئَتْ بِسَبَبِ مَجيءِ خالِ شيرلي ووَصِيِّها السَّيِّدِ سِمْسون إلى فيلدهد بِرِفْقَةِ زَوْجَتِهِ وابْنَتَيْهِ الصَّبِيَّتَيْنِ إيزابيلا وجرتْرود. وكانَتْ شيرلي قَدْ أَمْضَتْ وَسْطَ هٰذِهِ الأُسْرَةِ سَنَتَيْنِ في جنوبيِّ إنكلترا عِنْدَما كانَتْ أَصْغَرَ سِنًّا. ولَمْ تَكُنْ تُكِنُّ لِهٰذِهِ العائِلَةِ مَحَبَّةً كَبيرَةً – وهٰذا ما لاحَظَتْهُ كارولين– غَيْرَ أَنَّها اضْطُرَّتْ إلى دَعْوَتِهِمْ لِلْبَقاءِ بِضْعَةَ أَسابيعَ في فيلدهد رَيْثَما يَلْحَقُ بِهِمِ ابْنُهُمُ الأَصْغَرُ هنري ومُدَرِّسُهُ.

شُغِلَ وَقْتُ شيرلي بِالاهْتِمامِ بِهٰؤُلاءِ الضُّيوفِ فَأَخَذَتْ كارولين تَشْعُرُ بِالوَحْدَةِ والكَآبَةِ، وبَدَتْ حَياتُها مِنْ دونِ هَدَفٍ. غَيْرَ أَنَّها تَبَلَّغَتْ ذاتَ صَباحٍ دَعْوَةً إلى تَناوُلِ الشّايِ مُوَجَّهَةً إلَيْها مِنْ أورْتانْس مور.

أَثْناءَ هٰذِهِ الزِّيارَةِ إلى مَنْزِلِ آلِ مور، دَخَلَ الفِناءَ فَجْأَةً رَجُلٌ يَمْتَطي جَوادًا. فَنَظَرَتْ



أورْتانْس إلى القادِمِ، ثُمَّ أَسْرَعَتْ نَحْوَهُ وهِيَ تَهْتِفُ فَرِحَةً: «لويس! لويس! يا لَها مِنْ مُفاجَأَةٍ! كَمْ أَنا سَعيدَةٌ لِرُؤْيَتِكَ!» ثُمَّ الْتَفَتَتْ إلى كارولين مُشْرِقَةَ الوَجْهِ وقالَتْ: «تَعالَيْ يا كارولين، إنَّهُ أَخي لويس. فَهُوَ كَما تَعْلَمينَ مُدَرِّسُ هنري.»

رَحَّبَتْ كارولين بِالزّائِرِ الجَديدِ، وما لَبِثَ روبِرْت، شَقيقُ لويس الأَكْبَرُ أَنِ انْضَمَّ إلَيْهِمْ في الفِناءِ.

قالَتْ أورْتانْس مُخاطِبَةً روبِرْت: «لَقَدْ جِئْتَ في الوَقْتِ المُناسِبِ. هٰذِهِ باقَةٌ مِنْ أَزْهارِ النَّرْجِسِ البَرِّيِّ أَرْسَلَتْها الآنِسَةُ كيلْدار. أَعْتَقِدُ أَنَّها لَكَ يا روبِرْت.»

فَقالَ لويس: «يَبْدو أَنَّ روبِرْت هُوَ المُفَضَّلُ هُناكَ!»

أَجابَتْ أورْتانْس: «يا عَزيزي لويس، روبِرْت هو المُفَضَّلُ هُنا. أَلَيْسَ كَذٰلِكَ يا كارولين»؟ لَمْ تُجِبْ كارولين. فَرَأَى لويس أَنْ يُوَجِّهَ السُّؤالَ إلى روبِرْت قائِلًا: «وأَنْتَ يا روبِرْت ما رَأْيُكَ؟» فَأَجابَ بِهُدوءٍ: «عَلَيْكَ أَنْ تَسْأَلَ الآنِسَةَ كيلْدار عِنْدَما تَلْتَقي بِها.»

كانَتْ كارولين في اليَوْمِ التّالي تَعِبَةً بِشَكْلٍ غَيْرِ مَعْهودٍ ومَحْمومَةً، وفَقَدَتْ شَهِيَّتَها لِلطَّعامِ، وأَمْضَتْ لَيْلَتَها تَتَقَلَّبُ أَرَقًا وتَشْعُرُ بِالعَطَشِ والحَرارَةِ، وتَرَى الكَوابيسَ. وبَدا واضِحًا أَنَّ الحُمَّى اشْتَدَّتْ عَلَيْها. فَأَصْبَحَ شُغْلُ السَّيِّدَةِ پرايور الشّاغِلُ أَنْ تَزورَ بَيْتَ القِسّيسِ بِانْتِظامٍ. وعِنْدَما لاحَظَتْ، بَعْدَ أُسْبوعَيْنِ، أَنَّ حالَةَ كارولين لَمْ تَتَحَسَّنْ، طَلَبَتْ مِنَ السَّيِّدِ هِلْستون أَنْ يَسْمَحَ لَها بِالبَقاءِ في بَيْتِهِ لِلاعْتِناءِ بِالمَريضَةِ. ورَحَّبَ السَّيِّدُ هِلْستون بِالعَرْضِ لِأَنَّه كانَ يَعْلَمُ أَنَّ الآنِسَةَ كيلْدار غائِبَةٌ عَنْ مَنْزِلِها في عُطْلَةٍ.

إِعْتَنَتِ السَّيِّدَةُ پرايور بِكارولين لَيْلَ نَهارَ، غَيْرَ أَنَّ كارولين كانَتْ تَزْدادُ وَهَنًا وهُزالاً، كَأَنَّ الحَياةَ لَمْ تَعُدْ تَعْني لَها شَيْئًا. فَقالَتْ لَها السَّيِّدَةُ پرايور: «كارولين، حَبيبَتي، عَلَيْكِ أَنْ تَشُدّي عَزيمَتَكِ كَيْ تَتَحَسَّنَ حالَتُكِ.»

قالَتْ كارولين: «إِنّي آسِفَةٌ يا سَيِّدَةُ پرايور. لَيْسَ لي في الحَياةِ هَدَفٌ أَعيشُ مِنْ أَجْلِهِ.»

– لٰكِنّي أُبْدي لَكِ بَعْضَ المَحَبَّةِ والاهْتِمامِ أَلَيْسَ كَذٰلِكَ؟

– بِكُلِّ تَأْكيدٍ. وأَنْتِ تَعْرِفينَ مَدى تَعَلُّقي بِكِ!

وتَرَدَّدَتِ السَّيِّدَةُ پرايور هُنَيْهَةً، ثُمَّ قالَتْ: «إِنْ كُنْتِ تُحِبّينَني إِلى هٰذا الحَدِّ فَبِإِمْكاني أَنْ أَبوحَ لَكِ بِسِرٍّ مُهِمٍّ، اعْلَمي يا كارولين أَنَّكِ ابْنَتي!»

فَسَأَلَتْها كارولين مُنْدَهِشَةً: «هَلْ تَعْنينَ أَنَّني ابْنَتُكِ بِالتَّبَنّي؟»

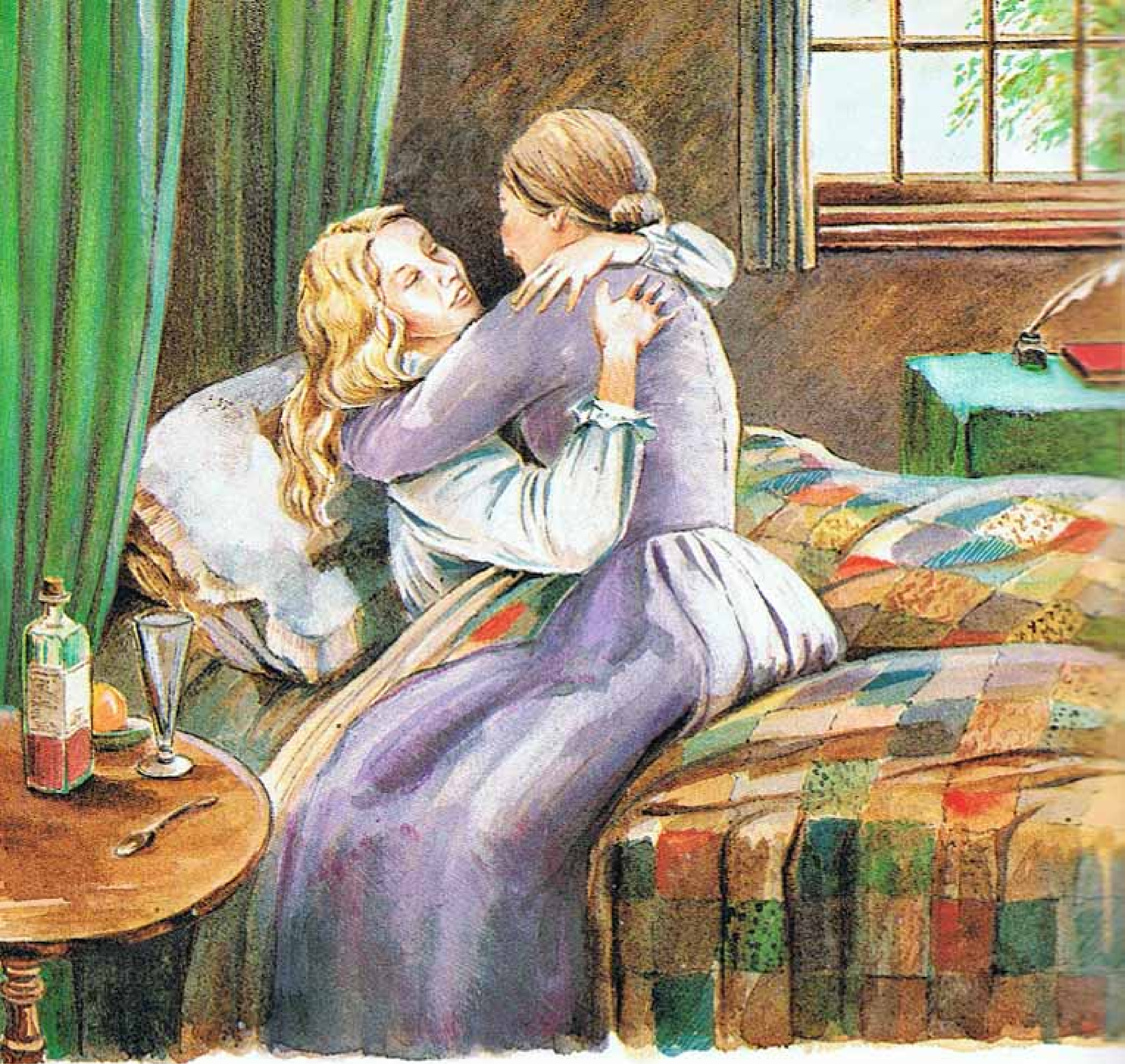
وأَجابَتِ السَّيِّدَةُ پرايور: «كَلّا، بَلْ أَنا أُمُّكِ الحَقيقِيَّةُ!»

فَقالَتْ كارولين مُنْذَهِلَةً: «لٰكِنَّ السَّيِّدَةَ جيمس هِلْستون هِيَ أُمّي!»

تابَعَتِ السَّيِّدَةُ پرايور كَلامَها: «أَجَلْ، يا حَبيبَتي، جيمس هِلْستون كانَ زَوْجي.»

قالَتْ كارولين وقَدْ قَطَعَ أَنْفاسَها هَوْلُ الخَبَرِ: «أَنْتِ حَقًّا أُمّي!»

وبَدَتْ كَأَنَّها غَيْرُ قادِرَةٍ عَلى اسْتيعابِ ما سَمِعَتْ، وتابَعَتْ وقَدْ عَلا صَوْتُها: «إِنَّ هٰذا سَيُبَدِّلُ حَياتي، إِنّي أَرْغَبُ في الشِّفاءِ مِنْ كُلِّ قَلْبي فَلَدَيَّ الآنَ شَخْصٌ أَعيشُ مِنْ أَجْلِهِ.» وعانَقَتِ السَّيِّدَةُ پرايور ابْنَتَها الَّتي أَخَذَتْ تَذْرِفُ دُموعَ الفَرَحِ.



ثُمَّ أَخْبَرَتِ السَّيِّدَةُ برايور ابْنَتَها كارولين قِصَّةَ زَواجِها البائِسِ ومُمارَسَتِها مِهْنَةَ المُرَبِّيَةِ بَعْدَ فَشَلِ زَواجِها. وسَأَلَتْها كارولين: «ولٰكِنْ لِمَ لَمْ يَتَعَرَّفْ إِلَيْكِ أَحَدٌ عِنْدَما أَتَيْتِ إلى فيلدهِد بِرِفْقَةِ الآنِسَةِ كيلدار؟» فَأَجابَتْ: «عِشْتُ هُنا وَقْتًا قَصيرًا مُنْذُ عِشْرينَ سَنَةً مَضَتْ. وكُنْتُ آنَذاكَ فَتاةً نَحيلَةً.»

وحينَما أَتَى السَّيِّدُ هلستون لِيَطْمَئِنَّ إلى كارولين أَكَّدَ لَها أَنَّ السَّيِّدَةَ برايور هِيَ حَقًّا آغْنِس جيمس هلستون، وفَرِحَ لِتَحَسُّنِ حالَةِ كارولين المَلْحوظِ إِثْرَ تَلَقِّيها هٰذا الخَبَرَ.

مُنْذُ ذٰلِكَ اليَوْمِ أَخَذَتْ حالَةُ كارولين الصِّحِّيَّةُ تتحسَّنُ بِسُرْعَةٍ. وفَرِحَتْ شيرلي بِهٰذا التَّحسُّنِ عِنْدَما قامَتْ بِزيارَتِها بَعْدَ انْتِهاءِ عُطْلَتِها. وهَنَّأَتِ السَّيِّدَةَ برايور عَلى عِنايَتِها الفائِقَةِ بِكارولين. ثُمَّ سَأَلَتْها: «وهَلْ سَتعودُ مُرَبِّيَتي إِلَيَّ قريبًا؟»

قالَتْ كارولين مُوَجِّهَةً كَلامَها لِلسَّيِّدَةِ برايور: «هَلْ بِإِمْكاني أَنْ أُخْبِرَها؟»

وبَعْدَ أَنْ سَمَحَتْ لَها باحَتْ لِشيرلي بِسِرِّ أُمِّها الغَريبِ.

قالَتْ شيرلي: «إِنَّهُ خَبَرٌ عَظيمٌ، ولٰكِنَّهُ لَمْ يُفاجِئْني؛ لَقَدْ سَبَقَ وتَنَبَّأْتُ بِهِ لِأَنَّني كُنْتُ أَعْرِفُ بَعْضَ أَسْرارِ السَّيِّدَةِ برايور قَبْلَ أَنْ تُصْبِحَ مُرَبِّيَتي، فَضْلاً عَنْ أَنّي لاحَظْتُ اهْتِمامَها البالِغَ والمُتَواصِلَ بِكِ، مُنْذُ أَنْ أَتَيْتُ إِلى هٰذِهِ المِنْطَقَةِ. وهٰذا ما جَعَلَني في النِّهايَةِ أُخَمِّنُ الحَقيقَةَ.»

فَسَأَلَتْها كارولين: «ولِمَ كَتَمْتِ هٰذِهِ الشُّكوكَ عَنّي؟»

وأَجابَتْ شيرلي: «اِعْتَبَرْتُ أَنَّ حَقَّ كَشْفِ السِّرِّ يَعودُ لِوالِدَتِكِ وَحْدَها.»

بَعْدَ فَتْرَةٍ أَصْبَحَتْ كارولين قادِرَةً عَلى القِيامِ بِزِيارَةٍ إِلى فيلدهد، حَيْثُ تَعَرَّفَتْ عَنْ قُرْبٍ بِخالِ شيرلي ووَصِيِّها السَّيِّدِ سِمْسون وزَوْجَتِهِ وأَوْلادِهِ الثَّلاثَةِ جرتْرود وإيزابيلاّ وهنري.

كانَ السَّيِّدُ سِمْسون رَجُلَ أَعْمالٍ ثَرِيًّا سَريعَ الانْفِعالِ مَيّالاً إِلى القَلَقِ، مُتَشَبِّثًا بِآرائِهِ مادِّيَّ التَّفْكيرِ. أَمّا زَوْجَتُهُ فَمُتَكَلِّفَةٌ تَخْضَعُ لِلتَّقاليدِ خُضوعًا أَعْمى. أَمّا ابْنَتاهُما فَلا تَنْقُصُهُما الجاذِبِيَّةُ، ولٰكِنَّهُما عَلى غِرارِ والِدَتِهِما تُقَلِّدانِ تِلْقائِيًّا العاداتِ والأَزْياءَ السّائِدَةَ. ولا عَجَبَ أَنْ آثَرَتْ شيرلي صَديقَتَها كارولين عَلَيْهِما ورَغِبَتْ بِصُحْبَتِها فَجاذِبِيَّتُها تَقومُ عَلى ذَكاءٍ حادٍّ وبَراءَةٍ أَصيلَةٍ.

أَمّا هنري، الابْنُ الوَحيدُ فَقَدْ كانَ أَعْرَجَ مُنْذُ طُفولَتِهِ، لِذٰلِكَ أَحَبَّتْهُ أُمُّهُ ودَلَّلَتْهُ بِصورَةٍ خاصَّةٍ، وتَعَلَّقَتْ بِهِ شيرلي عِنْدَما كانَتْ تَتَلَقّى مَعَهُ دُروسًا خُصوصِيَّةً عَلى يَدِ لويس مور قَريبِ كارولين وشَقيقِ روبرْت، وذٰلِكَ أَثْناءَ إِقامَتِها مَعَ أُسْرَةِ سِمْسون.

ما لَبِثَتْ كارولين أَنْ لاحَظَتِ ابْتِعادَ لويس مور عَن عائِلَةِ سِمْسون. فَكانَ لا يَنْعَمُ إِلاّ بِصَداقَةِ تِلْميذِهِ هنري وكَلْبِ شيرلي تارتر. وشيرلي نَفْسُها كانَتْ تُعامِلُهُ مُعامَلَةَ الغُرَباءِ.

تَوَجَّهَتْ كارولين إلى شيرلي بِسُؤالٍ وهُما تَتَمَشَّيانِ يَوْمًا في الحَديقَةِ: «هَلْ كُنْتِ تَعْلَمينَ أَنَّ لويس قَريبي، قَبْلَ مَجيءِ أُسْرَةِ سِمْسون إلى فيلدهِد لِزِيارَتِكِ؟»

أَجابَتْ شيرلي: «بِالطَّبْعِ. لَقَدْ كُنْتُ تِلْميذَتَهُ أَثْناءَ إقامَتي مَعَ أُسْرَةِ سِمْسون، وأَخْبَرَني عَنْ كُلِّ ما يَتَعَلَّقُ بِعائِلَتِهِ.»

وتابَعَتْ كارولين: «أَسْتَغْرِبُ أَنَّكِ لَمْ تَأْتي عَلى ذِكْرِهِ أَمامي قَطُّ مَعَ عِلْمِكِ بِأَنَّهُ قَريبي!»

فَقالَتْ شيرلي: «لَمْ أَعْتَبِرْ هٰذا سِرًّا! ظَنَنْتُ -بِكُلِّ بَساطَةٍ- أَنَّكِ تَدْرينَ.»





أثارَ هٰذا الوَضْعُ فُضولَ كارولين وحَيْرَتَها فَقالَتْ: «يَبْدو لي يا شيرلي أنَّكِ تَكْرَهينَ لويس. هَلْ لِأَنَّهُ مُدَرِّسٌ بَسيطٌ؟ هَلْ كُنْتِ تُفَضِّلينَ أنْ يَكونَ ذا مَرْكَزٍ اجْتِماعِيٍّ عَلى غِرارِ أخيهِ روبِرْت لِتُعامِليهِ مُعامَلَةَ صَديقٍ أوْ شَخْصٍ مِنْ مُسْتَواكِ؟»

فَقالَتْ شيرلي بِازْدِراءٍ: «شَتّانَ ما بَيْنَ لويس وروبِرْت!»

قالَتْ كارولين: «بِالرَّغْمِ مِنْ أنَّهُ لا يُضاهي أخاهُ روبِرْت وَسامَةً، إلّا أنَّهُ يَتَحَلّى أيْضًا بِاللِّياقَةِ والمُروءَةِ. والسَّيِّدُ هُول، كاهِنُ نانْلي أثْنى عَلى ذَكائِهِ وذَوْقِهِ المُرْهَفِ بَعْدَ أنْ رافَقَهُ في نُزُهاتٍ في مِنْطَقَةِ البُحَيْراتِ.»

أرْدَفَتْ شيرلي بِتَهَكُّمٍ: «عَلَيْنا أنْ نَرْضى بِلويس إذًا لِأَنَّهُ أخو روبِرْت ولِأَنَّ السَّيِّدَ هُول مُعْجَبٌ بِذَكائِهِ! لِنَكُفَّ عَنِ التَّحَدُّثِ عَنْهُ وإلّا انْتَهى بِنا الكَلامُ إلى الشِّجارِ!»

كانَ السَّيِّدُ سِمْسون خالُ شيرلي ووَصِيُّها قَدْ أتى إلى فيلدهِد آمِلًا في أنْ يَخْتارَ لِابْنَةِ أُخْتِهِ زَوْجًا مُناسِبًا. لٰكِنَّهُما لَمْ يَتَّفِقا قَطُّ عَلى ما تَعْنيهِ لَفْظَةُ «مُناسِب»، لِأَنَّهُما مُخْتَلِفانِ تَمامًا في الخُلُقِ والمِزاجِ. فَالسَّيِّدُ سِمْسون مادِّيٌّ دُنْيَوِيُّ الطَّبْعِ ومُحِبٌّ لِلسُّلْطَةِ والنِّظامِ



بَيْنَما شيرلي ذاتُ مِزاجٍ حالِمٍ وتُحَبِّذُ حُرِّيَّةَ الفَرْدِ واسْتِقْلالِيَّتَهُ ولا تَتَقَيَّدُ بِأَيِّ نِظامٍ.

نَوَّهَ السَّيِّدُ سِمْسون – في سِياقِ حَديثِهِ مَعَ شيرلي – بِثَلاثَةِ رِجالٍ قَدْ يَطْلُبونَ يَدَها. غَيْرَ أنَّ مُحاوَلَتَهُ كانَتْ عَقيمَةً، فَشيرلي فَتاةٌ واعِيَةٌ مُسْتَقِلَّةُ الرَّأْيِ، ولَمْ تَكُنْ لِتَخْضَعَ لِإرادَةِ أحَدٍ. أمّا الاسْمُ الوَحيدُ الَّذي لَمْ تَرْفُضْهُ بِازْدِراءٍ فَكانَ البارونَ فيليب نانْلي الَّذي كانَتْ تَحْتَرِمُهُ وتَعْتَبِرُهُ إنْسانًا رَزينًا مُثَقَّفًا غَيْرَ مُتَكَلِّفٍ. وقَدِ الْتَقَتْ بِهِ بِضْعَ مَرّاتٍ عَلى مَتْنِ يَخْتِهِ وفي مَنْزِلِهِ وفي فيلدهِد، لٰكِنَّها لَمْ تُفَكِّرْ قَطُّ في الاقْتِرانِ بِهِ. أمّا السَّيِّدُ سِمْسون فَكانَ يَتَمَنّى أنْ تَتَوَطَّدَ هٰذِهِ الصَّداقَةُ وتَتَحَوَّلَ إلى حُبٍّ حَقيقِيٍّ.

كانَ السَّيِّدُ يورْك عَلى عِلْمٍ بِهٰذِهِ التَّطَوُّراتِ، فَقالَ لِلويس يَوْمًا: «عَلَيْكَ أنْ تَبْعَثَ لِأَخيكَ روبِرْت بِرِسالَةٍ تُحَذِّرُهُ فيها مِنْ مَغَبَّةِ بَقائِهِ بَعيدًا. فَهٰذا ما سَيُفْقِدُهُ فُرْصَةَ العُمْرِ!»

فَسَأَلَهُ لويس بِشَيْءٍ مِنَ الدَّهْشَةِ: «هَلْ تَعْني روبِرْت والآنِسَةَ كيلْدار؟»

أجابَ السَّيِّدُ يورْك قائِلًا: «أجَلْ. إنَّها تُقَدِّرُهُ بِما فيهِ الكِفايَةُ، وهُوَ – عَلى كُلِّ حالٍ أفْضَلُ مِنْ ذٰلِكَ البارونِ الصَّغيرِ!»

بَعْدَ بِضْعَةِ أَيّامٍ جاءَ هنري إلى لويس وهُوَ بِحالَةِ ذُعْرٍ شَديدٍ، وفاجَأَهُ بِنَبَإِ مَرَضِ شيرلي، لا بَلْ بِإِشْرافِها عَلى المَوْتِ، حَتّى إنّها ذَهَبَتْ إلى ستيل بورو حَيْثُ الْتَقَتْ بِمُحاميها لِتَحْضيرِ وَصِيَّتِها.



بَدا هٰذا الخَبَرُ بَعيدًا عَنِ التَّصْديقِ، إلّا أنّ لويس اكْتَشَفَ، لاحِقًا، أنَّ في كَلامِ هنري شَيْئًا مِنَ الصِّحَّةِ فَقَرَّرَ أنْ يَسْتَوْضِحَ شيرلي الأَمْرَ.

قالَتْ شيرلي: «أَجَلْ يا لويس، إنّي في خَطَرٍ شَديدٍ، فَمُنْذُ بِضْعَةِ أيّامٍ عَضَّني في ذِراعي كَلْبُ سام پورْتر، وعَلِمْتُ أنَّهُ مُصابٌ بِداءِ الكَلَبِ. نَظَّفْتُ الجُرْحَ وعالَجْتُهُ بِالكَيِّ بِنَفْسي، وقَرَّرْتُ ألّا أُخْبِرَ أحَدًا بِهٰذا الحادِثِ المُؤْسِفِ. وها إنكَ تَعْرِفُ سِرّي الآنَ.»

اِنْتابَ لويس قَلَقٌ عَميقٌ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ مَدى خُطورَةِ هٰذا المَرَضِ الرَّهيبِ الّذي يُسَبِّبُ خَلَلًا في الدِّماغِ ويُؤدّي حَتْمًا إلى مَوْتٍ بَطيءٍ وأَليمٍ. فَقالَ: «كانَ عَلَيْكِ أنْ تُخْبِرينا بِذٰلِكَ أوْ عَلى الأقَلِّ أنْ تَسْتَشيري طَبيبًا. أَلَمْ تَعْلَمي أنَّكِ تَسْتَطيعينَ أنْ تَثِقي بي!»

قالَتْ شيرلي: «لَسْتُ مُتَأَكِّدَةً مِنْ ذٰلِكَ، تَبْدو لي أحْيانًا مُتَكَبِّرًا ومُتَحَفِّظًا.»

فَرَدَّ لويس بِقَوْلِهِ: «هٰذا بِسَبَبِ فَقْري ومِهْنَتي المُتَواضِعَةِ، فَغالِبًا ما يُرافِقُ الفَقْرَ اعْتِزازٌ بِالنَّفْسِ. فَضْلًا عَنْ أنّي كُنْتُ دائِمًا حائِرًا في أمْرِكِ، فَتارَةً تَنْظُرينَ إلَيَّ نَظْرَةَ التِّلْميذَةِ المُحْتَرِمَةِ لِأُسْتاذِها، وطَوْرًا تَلْعَبينَ مَعي دَوْرَ سَيِّدَةِ القَصْرِ المُتَعالِيَةِ. فَرَأَيْتُ أنْ أُعامِلَكِ بِحَذَرٍ.. أمّا الآنَ فَأَقْتَرِحُ اسْتِدْعاءَ الطَّبيبِ لِاسْتِشارَتِهِ فيما يَجِبُ عَمَلُهُ.»

فَقالَتْ شيرلي مُذْعِنَةً لِقَرارِ لويس مِنْ غَيْرِ تَرَدُّدٍ: «اِفْعَلْ ما تَراهُ مُناسِبًا!».

عِنْدَما أتى الطَّبيبُ لِيُعايِنَ شيرلي، في اليَوْمِ ذاتِهِ، أعْلَنَ أنَّ الجُرْحَ باتَ سَليمًا وأنَّ الفُحوصاتِ قَدْ أثْبَتَتْ عَدَمَ إصابَةِ الكَلْبِ بِداءِ الكَلَبِ. فَتَنَفَّسَ الجَميعُ الصُّعَداءَ حِيالَ نَجاةِ شيرلي مِنَ الخَطَرِ.

وفيما كانَتْ شيرلي تَسْتَعِدُّ لِمُغادَرَةِ المَنْزِلِ الْتَفَتَتْ نَحْوَ لويس وسَأَلَتْهُ: «هَلِ اتَّصَلْتَ بِأَخيكَ مُؤَخَّرًا؟»

فَأَجابَها: «كَلّا، لٰكِنّي أَظُنُّكِ تَعْلَمينَ سَبَبَ ذَهابِهِ إلى لندن. لَقَدْ بَدا مُضْطَرِبًا لِلغايَةِ بَعْدَ لِقائِكُما الأخيرِ. أَظُنُّ أنَّكِ طَعَنْتِهِ في كِبْرِيائِهِ. إذا أرَدْتِ سَأَكْتُبُ لَهُ وأَطْلُبُ مِنْهُ أنْ يَعودَ...»

فَقاطَعَتْهُ شيرلي قائِلَةً: «ولٰكِنْ أرْجوكَ، لا تَقُلْ لَهُ إنَّها أُمْنِيَتي. اُكْتُبْ لَهُ فَقَطْ أنَّ عَوْدَتَهُ إلى المَصْنَعِ باتَتْ مُسْتَحْسَنَةً.»

ذاتَ يَوْمٍ بَلَغَ أَهْلَ المِنْطَقَةِ نَبَأُ إدانَةِ زُعَماءِ الفِتْنَةِ والحُكْمِ عَلَيْهِمْ قَضائيًّا في برمنغهام. وكانَ روبرْت مور ما يزالُ في لَنْدن، فاعْتَقَدَ سَوادُ النّاسِ أَنَّهُ كانَ يَخْشَى العَوْدَةَ إلى هولو، بَيْنَما كان هو في الواقِعِ في نِهايَةِ طَريقِهِ عائِدًا إلى بَيْتِهِ. اِلْتَقَى مور أَثْناءَ المَسيرِ بِصَديقِهِ السَّيِّدِ يورْك عَلى الطَّريقِ العامِّ المُعْتِمِ فَتَبادَلا التَّحِيّاتِ الحارَّةَ، ثُمَّ قالَ السَّيِّدُ يورْك لروبرْت: «لِمَ أَطَلْتَ الغِيابَ يا روبرْت؟ لَقَدْ خَشيتُ أَنْ تَفوتَكَ فُرْصَةُ الفَوْزِ بِيَدِ شيرلي كيلْدار. مِنَ المُمْكِنِ أَنْ تُصْبِحَ السَّيِّدَةَ نانلي قَبْلَ عيدِ الميلادِ!»

سَأَلَهُ روبرْت، وكَأَنَّهُ يَرَى في المَسْأَلَةِ مُزاحًا: «وهَلْ أَفْلَتَتْ مِنْ يَدي نِهائِيًّا؟» فَأَجابَهُ: «إنَّ السَّيِّدَ نانلي إنْسانٌ حالِمٌ يَنْظِمُ الشِّعْرَ الفارِغَ. ورُبَّما لا تَزالُ شيرلي تَميلُ إلَيْكَ، فَابْقَ بِقُرْبِها لِتُحَصِّنَ مَوْقِفَكَ.» وقَهْقَهَ روبرْت، فَتَساءَلَ يورْك: «لِمَ تَضْحَكُ؟»

فَأَجابَهُ: «تَصَوَّرْتُ أَنَّ الآنِسَةَ كيلْدار تَرَى في شَخْصي وفي أَعْمالي ما قَدْ يَجْذِبُها، فَقَدْ أَبْدَتِ اهْتِمامًا بِعَمَلي، حَتّى إنَّها أَقْرَضَتْني خَمْسَةَ آلافِ جُنَيْهٍ لِتُساعِدَني عَلى مُواجَهَةِ أَعْباءِ المَصْنَعِ. وعَلى إثْرِ ذٰلِكَ أَصْبَحْتُ شِبْهَ مُقْتَنِعٍ بِأَنَّها تُحِبُّني.»



سَأَلَ السَّيِّدُ يورْك: «هَلْ وَقَعْتَ أَنْتَ في حُبِّها؟» فَأَجابَهُ روبرْت: «بَدَتْ لي جَذّابَةً، لا بَلْ خَلّابَةً وفَريدَةً. إلّا أَنَّنا لَمْ نَشْعُرْ بِأَنَّنا مُتَقارِبانِ فِعْلًا. لٰكِنّي فَكَّرْتُ بِفَوائِدِ الاقْتِرانِ بِوَريثَةٍ مِنَ المِنْطَقَةِ، فَطَلَبْتُ يَدَها ظَنًّا مِنّي أَنَّها تَتَوَقَّعُ هٰذِهِ المُبادَرَةَ.»

عادَ السَّيِّد يورْك لِيَسْأَلَ: «وكَيْفَ كانَتْ رَدَّةُ فِعْلِها؟» فَارْتَسَمَتْ عَلى شَفَتَيْ روبرْت ابْتِسامَةٌ حَزينَةٌ وقالَ: «اِنْتَصَبَتْ مَدْهوشَةً، لا بَلْ مَذْعورَةً. فَكَرَّرْتُ طَلَبي كَيْ تَفْهَمَني بِوُضوحٍ.» سَأَلَهُ يورْك بِلَهْفَةٍ: «ماذا كانَ جَوابُها؟»

فَقالَ: «حَرَّرَتْني مِنْ أَوْهامي، وادِّعاءاتي بِطَريقَةٍ حاسِمَةٍ، واعْتَبَرَتْ أَنّي - بِطَلَبي هٰذا - كُنْتُ أَقْرَبَ إلى لِصٍّ يَسْلُبُ مالَها مِنّي إلى عاشِقٍ يَحْلُمُ بِحُبِّها. وأَقَرَّتْ بِأَنَّها تُكِنُّ لي الوُدَّ والاحْتِرامَ، وعَبَّرَتْ عَنْ أَسَفِها لِأَنَّها حَمَلَتْني - بِتَصَرُّفاتِها - عَلى الاعْتِقادِ بِأَنَّها تُحِبُّني. وبَعْدَ تَبادُلِ الكَلامِ بِهٰذِهِ الصَّراحَةِ أَدَّى بي شُعوري العَميقُ بِالإحْراجِ إلى التَّفْكيرِ في الغِيابِ عَنِ المِنْطَقَةِ لِفَتْرَةٍ مِنَ الزَّمَنِ.»

بَعْدَ هٰذا الحَديثِ، تابَعَ الرَّجُلانِ سَيْرَهُما. ثُمَّ تَقَدَّمَ يورْك عَلى رَفيقِهِ الَّذي تَوَقَّفَ قُرْبَ جَدْوَلٍ لِيَسْقِيَ جَوادَهُ. وبَيْنَما كانَ يورْك يَسيرُ عَلى مَهَلٍ فوجِئَ بِرُؤْيَةِ خَيالٍ قاتِمٍ يَظْهَرُ بَيْنَ الشُّجَيْراتِ. وإذا بِدَوِيٍّ يُمَزِّقُ سُكونَ اللَّيْلِ، فَأَيْقَنَ أَنَّهُ قَدْ أُخِذَ بِثَأْرِ المُحَرِّضينَ الَّذينَ أُدينوا في برمنغهام. وكانَ روبرْت مور يَنْزِفُ عَلى الأَرْضِ فاقِدَ الوَعْيِ.



في فيلدهِد لَمْ يَكُنِ السَّيِّدُ سِمْسون قَدْ فَقَدَ الأَمَلَ بِعَقْدِ زَواجِ شيرلي إلى السِّير فيليپ نانلي، لِذٰلِكَ صُعِقَ عِنْدَما أَخْبَرَتْهُ شيرلي بِكُلِّ صَراحَةٍ ووُضوحٍ أَنَّها رَفَضَتْ طَلَبَ السِّير فيليپ بِشَكْلٍ قاطِعٍ. وأَضافَتْ شيرلي مُبَرِّرَةً مَوْقِفَها: «أَرى أَنَّهُ يَفْتَقِرُ إلى النُّضْجِ. ولا شَيْءَ يَجْمَعُ بَيْنَنا. إِنَّهُ لَيِّنُ الطَّبْعِ وأَنا لَنْ أَقْتَرِنَ إلّا بِمَنْ يَسْتَطيعُ بِقُوَّتِهِ أَنْ يَحْميَني ويُوَجِّهَني. يَجِبُ على زَوْجي أَنْ يَكونَ جَديرًا بِاحْتِرامي.»

وأَرْبَكَ مَوْقِفُ شيرلي السَّيِّدَ سِمْسون وأَكَّدَ لَهُ شَكَّهُ في أَنْ تَكونَ مَفْتونَةً بِأَحَدِ المُغامِرينَ الحَقيرينَ أَوْ بِالمُفْلِسِ روبِرْت مور كَما تُفيدُ الإشاعاتُ. وأَخيرًا نَفِدَ صَبْرُهُ فَقالَ: «أَنْتِ تَنْتَسِبينَ إلى عائِلَةٍ مُحْتَرَمَةٍ يا شيرلي. عَلَيْكِ أَلّا تَقْتَرِني بِمَنْ هُوَ أَدْنى مِنْكِ مَقامًا. لَقَدْ وَصَلَتْ إلى مَسْمَعي إشاعَةُ صَداقَتِكِ الحَميمَةِ مَعَ هٰذا المُسْتَأْجِرِ المُفْلِسِ روبِرْت مور!»

اِلْتَفَتَتْ إِلَيْهِ شيرلي غاضِبَةً وقالَتْ: «إِنَّهُ عَلى الأَقَلِّ ذَكِيٌّ ووَسيمٌ وصاحِبُ قَرارٍ.»

فَقاطَعَها السَّيِّدُ سِمْسون قائِلًا: «هٰذا غَيْرُ مَعْقولٍ! مور إِنْسانٌ عَديمُ الشَّأْنِ، وأَخوهُ هُوَ مُدَرِّسُ ابْني هنري. فَهَلْ تَرْضَيْنَ بِمِثْلِ هٰذا النَّسَبِ لِعائِلَتِكِ؟!»

صَرَخَتْ شيرلي وقَدْ أَغاظَها كَلامُهُ: «أَرْجوكَ كُفَّ عَنِ التَّدَخُّلِ في شُؤوني الخاصَّةِ، فَلا سُلْطَةَ لَكَ عَلَيَّ. وأَنا أَنْوي أَنْ أَتَصَرَّفَ عَلى هَوايَ.»

لَمْ يَسْتَطِعِ السَّيِّدُ سِمْسون تَحَمُّلَ المَزيدِ، فَقالَ بِصَوْتٍ هادِرٍ: «سَتُلْحِقينَ العارَ بِالعائِلَةِ. لَنْ أُكَلِّمَكِ بَعْدَ الآنَ.. سَنُغادِرُ مَنْزِلَكِ غَدًا.» ثُمَّ تَرَكَ الغُرْفَةَ غاضِبًا.

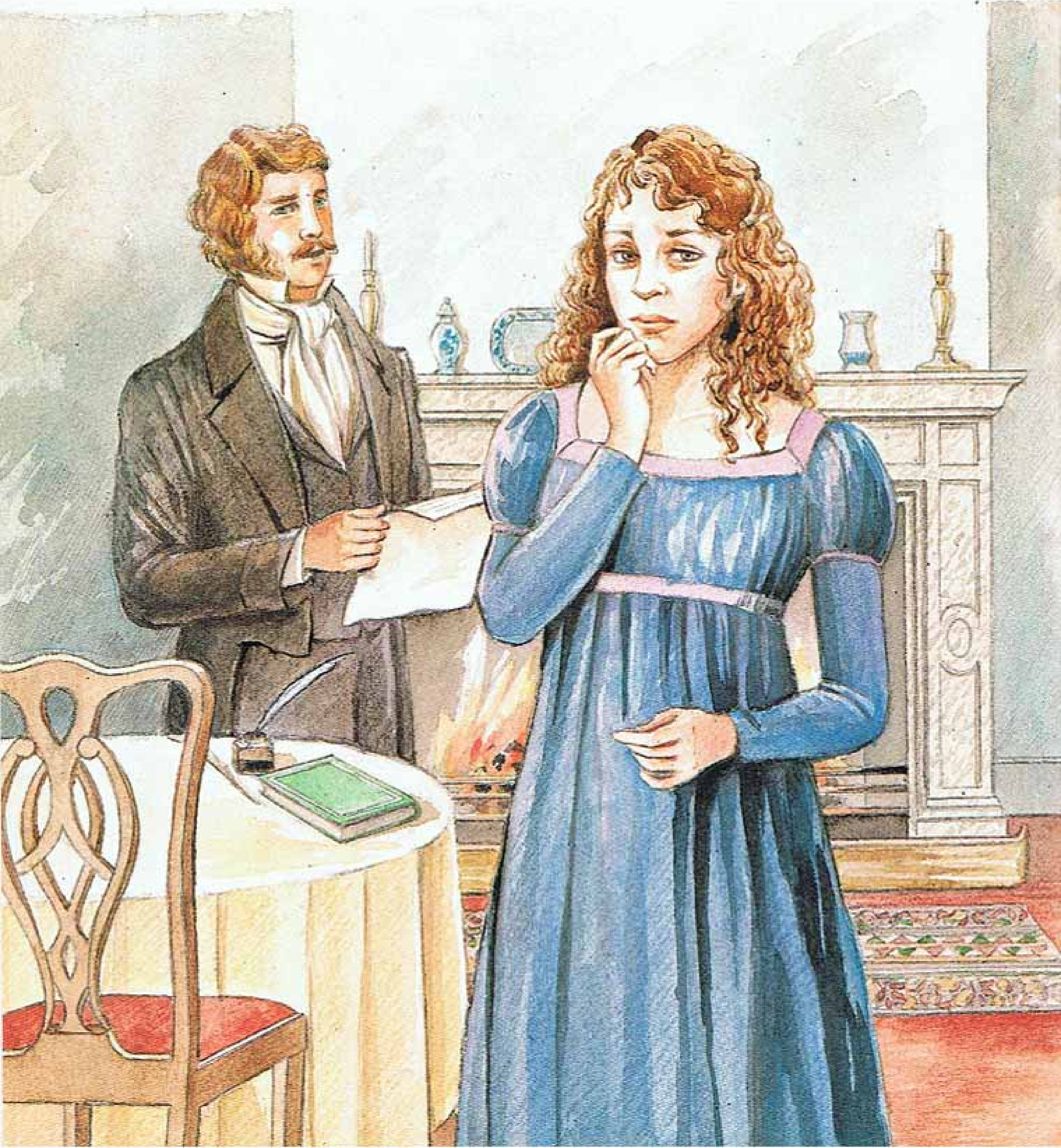
وَصَلَ لويس بَعْدَ قَليلٍ ورَأى شيرلي مُضْطَرِبَةً. فَقالَ: «لا بُدَّ مِنْ أَنَّ السَّيِّدَ سِمْسون كانَ يُضايِقُكِ! فَقَدْ بَدا لي مُغْتاظًا وطَلَبَ مِنّي أَنْ أَسْتَعِدَّ لِلرَّحيلِ.»

فَسَأَلَتْهُ شيرلي وقَدِ اشْتَدَّ حُزْنُها: «وهَلْ سَتَرْحَلُ أَنْتَ وهنري أَيْضًا؟»

أَجابَ لويس: «أَجَلْ، لِلأَسَفِ عَلَيْنا أَنْ نَرْحَلَ جَميعًا. ولٰكِنْ لَدَيَّ خَبَرٌ أَسْوَأُ: لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ روبِرْت أُصيبَ بِطَلْقَةٍ نارِيَّةٍ. وهُوَ الآنَ في برايرمينز عِنْدَ السَّيِّدِ يورْك.. لَقَدْ هاجَمَهُ المُشاغِبونَ.. غَيْرَ أَنَّ حالَتَهُ لَيْسَتْ خَطيرَةً وسَوْفَ تَتَحَسَّنُ بِسُرْعَةٍ.»

وكانَ هٰذا الخَبَرُ بِالنِّسبَةِ لِشيرلي الضَّرْبَةَ القاضِيَةَ. وفي غَمْرَةِ القَلَقِ، قَبَضَتْ على يَدِ لويس وأَحَسَّتْ مِنْهُ تَجاوُبًا حارًّا هُوَ أَقْرَبُ إلى عاطِفَةِ المَحَبَّةِ مِنْهُ إلى التَّعاطُفِ.

قالَ لويس: «لا بُدَّ أَنَّ هٰذا الخَبَرَ قَدْ وَصَلَ إلى أورْتانْس. ولٰكِنْ عَلَيْنا أَنْ نُبَلِّغَ كارولين هلْستون بِما جَرَى.» فَقالَتْ شيرلي: «سَأُخْبِرُها بِنَفْسي.» وأَفْلَتَتْ يَدَهُ عَلى مَضَضٍ، ولَمْ يَفُتْهُ أَنْ يُلاحِظَ ذٰلِكَ.



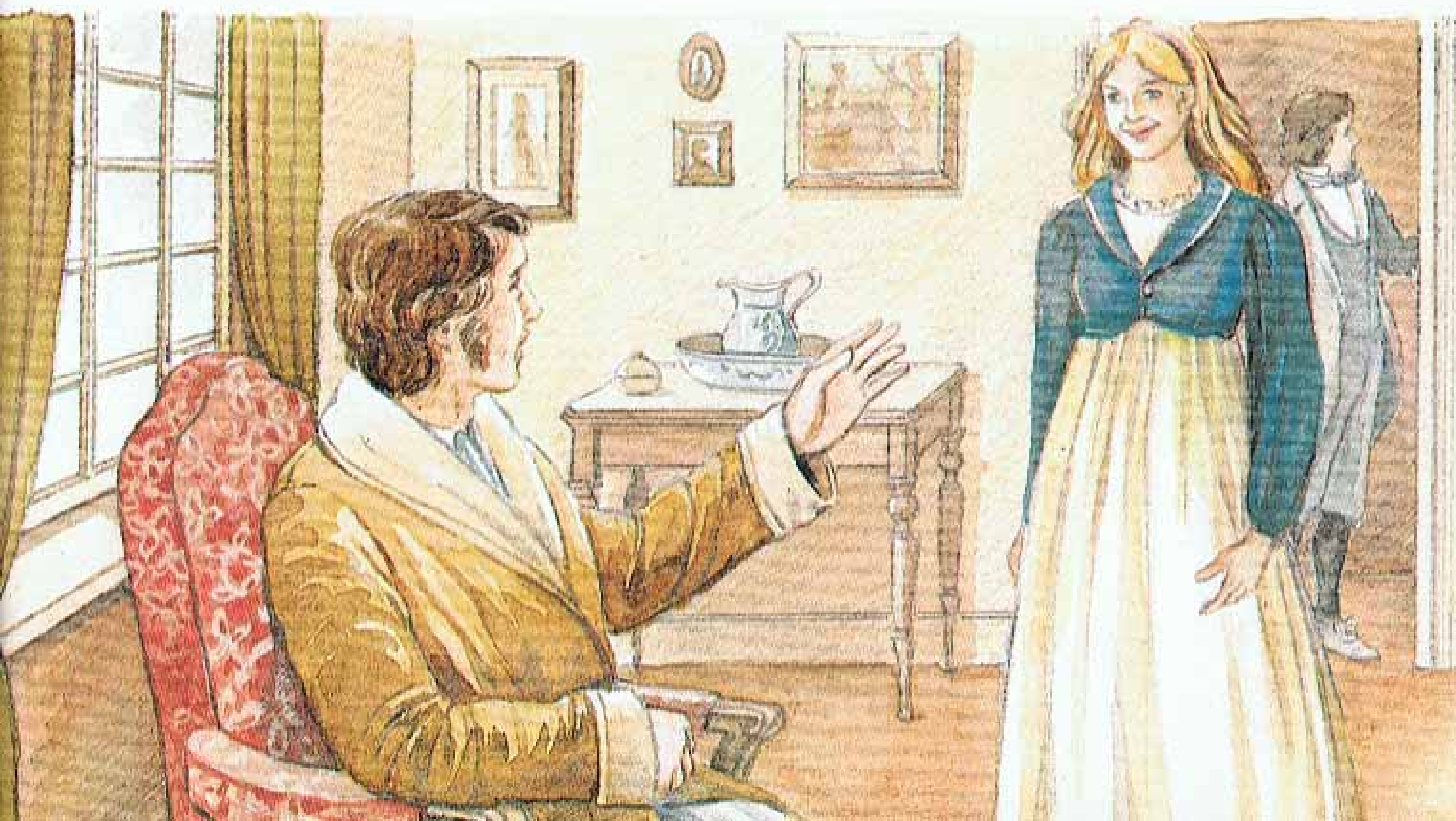
إثْرَ تَلَقّي كارولين خَبَرَ إصابَةِ روبرْت ووُجودِهِ في برايرمينز بِعِنايَةِ السَّيِّدَةِ يورْك، أَدْرَكَتْ على الفَوْرِ ضَرورَةَ البَحْثِ عَنْ طَريقَةٍ ما لِلقِيامِ بِزِيارَتِهِ. وما لَبِثَتْ أَنْ عَلِمَتْ أَنَّ السَّيِّدَةَ يورْك وأورْتانْس أُخْتَهُ اللَّتَيْنِ تَعْتَنِيانِ بِهِ، لا تَسْمَحانِ بِأَيِّ زِيارَةٍ. فَضْلاً عَنْ أَنَّ السَّيِّدَةَ هورسفول الشَّرِسَةَ قَدْ تَوَلَّتْ تَنفيذَ أَوامِرِ الطَّبيبِ. وفي أَيِّ حالٍ لا مَجالَ لاسْتِقْبالِ السَّيِّدَةِ يورْك أَيًّا مِنْ عائِلَةِ هِلْستون في مَنْزِلِها. فَاضْطُرَّتْ كارولين إلى البَحْثِ عَنْ طُرُقٍ أُخْرى لِرُؤْيَةِ روبرْت. وهٰذا ما قامَتْ بِهِ بِمُساعَدَةِ مارْتن أَحَدِ أَبْناءِ السَّيِّدِ يورْك، وهُوَ فَتًى في الخامِسَةَ عَشْرَةَ، مُفْعَمٌ بِالحَيَوِيَّةِ، ومُعْجَبٌ بِكارولين ومُخْلِصٌ لَها.

تَوَصَّلَ مارْتن بِدَهائِهِ إلى إبْعادِ السَّيِّدَةِ هورسفول بَعْدَ أَنْ تَأَكَّدَ مِنْ غِيابِ أُمِّهِ وأورْتانْس، ثُمَّ صَعِدَ وكارولين بِحَذَرٍ إلى غُرْفَةِ روبرْت. قَرَعَ مارْتن البابَ وقالَ: «يا سَيِّدُ مور! إنَّ سَيِّدَةً تَسْأَلُ عَنْكَ، جِئْتُ بِها إِلَيْكَ مُنْتَهِزًا فُرْصَةَ غِيابِ أَهْلِ البَيْتِ!»

فَأَتى الجَوابُ: «لا يُمْكِنُ أَنْ تُحْضِرَ سَيِّدَةً إلى هُنا.»

قالَ مارْتن مُبْتَسِمًا: «حَسَنًا، سَنَعودُ أَدْراجَنا!»

هَتَفَ روبرْت: «لا، يا مارْتن، تَمَهَّلْ. مَنْ هِيَ؟»



أَجابَ مارْتن وهُوَ يَغمِزُ كارولين: «إِنَّها جَدَّتُكَ العَجوزُ الآتِيَةُ مِنْ بلْجيكا!»

فَقالَ روبِرْت: «تَوَقَّفْ عَنِ اللَّهْوِ يا مارْتن! مَنْ هِيَ؟ صِفْها لي!»

قالَ مارْتن: «إِنَّها شابَّةٌ جَميلَةٌ يا سَيِّدُ مور. إِنَّها الآنِسَةُ كارولين هلْستون. لٰكِنْ أَسْرِعا: أَمامَكُما عَشْرُ دَقائِقَ فَقَطْ قَبْلَ أَنْ يَعودَ الآخَرونَ.»

ودَخَلَتْ كارولين الغُرْفَةَ وقَلْبُها يَخْفِقُ، فَوَجَدَتْ روبِرْت جالِسًا على كُرْسِيٍّ بِالقُرْبِ مِنَ النَّافِذَةِ. فَصاحَ روبِرْت مُبْتَهِجًا: «أَخيرًا جِئْتِ! كَمْ طالَ غِيابُكِ، وكَمْ كُنْتُ كَئيبًا يا كاري.»

فَقالَتْ كارولين: «جِئْتُ مَرَّتَيْنِ بِرِفْقَةِ أُمّي، لٰكِنَّ السَّيِّدَةَ يورْك لَمْ تَسْتَقْبِلْنا.»

قالَ روبِرْت وقَدْ بَدا الارْتِياحُ عَلى مُحَيّاهُ: «إِذًا لَمْ تَهْجُريني تَمامًا، اِجْلِسي وحَدِّثيني. إِنّي أَشْعُرُ بِالوَحْدَةِ مُنْذُ مُدَّةٍ طَويلَةٍ، وكُنْتُ مُشْتاقًا لِرُؤْيَتِكِ!»

فَرَدَّتْ كارولين قائِلَةً: «لَوْ كُنْتُ على عِلْمٍ بِذٰلِكَ، لَدَخَلْتُ بِالرَّغْمِ مِنْ إرادَةِ السَّيِّدَةِ يورْك وتِلْكَ الامْرَأَةِ المُتَوَحِّشَةِ السَّيِّدَةِ هورسفول. والآنَ، وقَدْ تَحَسَّنَتْ حالَتُكَ بِصورَةٍ مَلْحوظَةٍ، لِمَ لا تَعودُ إلى مَنْزِلِكَ؟ سَتَعْتَني بِكَ أورْتانْس.»

فَاعْتَرَفَ لَها روبِرْت قائِلاً: «حالَتْ كَآبَتي دونَ قِيامي بِهٰكَذا مَجْهودٍ، فَبَدَتْ لي حَياتي تافِهَةً مِنْ دونِ هَدَفٍ.»

فَقالَتْ كارولين: «أَعْرِفُ تَمامًا ما شَعَرْتَ بِهِ لِأَنّي مَرَرْتُ بِالتَّجْرِبَةِ نَفْسِها حَتّى إِنّي لَمْ أَعُدْ أَرْغَبُ في العَيْشِ.»

فَقالَ روبِرْت آخِذًا يَدَها: «إذا سامَحْتِني يا كاري فَسَتُساعِدينَني على الشِّفاءِ!»

في تِلْكَ اللَّحْظَةِ فَتَحَ مارْتن البابَ مُنادِيًا: «هَيّا! حانَ الوَقْتُ لِكَيْ تَرْحَلي!»

ثُمَّ قادَ ذٰلِكَ الشّابُّ المِقْدامُ كارولين بِسُرْعَةٍ إلى الطّابِقِ الأَسْفَلِ فَإِلى الخارِجِ.

أَثَّرَتْ زِيارَةُ كارولين في حالَةِ روبِرْت الصِّحِّيَةِ تَأْثيرًا عَميقًا، فَأَخَذَ يَتَعافى بِشَكْلٍ مَلْحوظٍ. وبَعْدَ بِضْعَةِ أَيّامٍ عادَ إلى مَنْزِلِهِ. فَرَحَّبَتْ بِهِ أورْتانْس ودَعَتْهُ إلى الجُلوسِ قُرْبَ مَوْقِدٍ تَتَأَجَّجُ فيهِ النّارُ. وقَبْلَ أَنْ تُحْضِرَ لَهُ الشّايَ سَلَّمَها وَرَقَةً بَعْدَ أَنْ دَوَّنَ عَلَيْها بِضْعَ كَلِماتٍ، وطَلَبَ إِرْسالَها إلى مَنْزِلِ القِسّيسِ. وسَرْعانَ ما حَضَرَتْ كارولين، فَتَناوَلوا الشّايَ بِهُدوءٍ قُرْبَ المَوْقِدِ. ثُمَّ تَرَكَتْهُما أورْتانْس وَحْدَهُما.

قالَ روبِرْت: «تَبْدينَ اليَوْمَ مَسْرورَةً لِلغايَةِ يا كارولين! فَما سَبَبُ هٰذا الفَرَحِ؟»

فَقالَتْ: «لِفَرَحي أَسْبابٌ عَديدَةٌ: أَحَدُها هُوَ جَمْعُ شَمْلي مَعَ أُمّي كَما تَعْلَمُ، وسَبَبٌ آخَرُ هُوَ شِفاؤُكَ التّامُّ واسْتِئْنافُنا صَداقَتَنا السّابِقَةَ. لَقَدْ شَعَرْتُ يَوْمًا أَنّي قَدْ فَقَدْتُكَ إلى الأَبَدِ.»

قالَ روبِرْت: «سَأَعْتَرِفُ لَكِ يَوْمًا بِتَصَرُّفٍ غَيْرِ لائِقٍ قُمْتُ بِهِ.»

فَقالَتْ كارولين: «أَعْتَقِدُ أَنّي أَعْرِفُ ما يُقْلِقُكَ يا روبِرْت. لَقَدْ تَحَدَّثْتُ مَعَ السَّيِّدِ يورْك والآنِسَةِ كيلْدار، وأَظُنُّ أَنّي أَعْرِفُ المَوْضوعَ.»

سَأَلَها روبِرْت: «هَلْ أَخْبَرَتْكِ أَنّي طَلَبْتُ يَدَها مِنْ أَجْلِ مالِها ومِنْ غَيْرِ حُبٍّ؟»

فَأَجابَتْهُ: «هِيَ تَلومُ نَفْسَها عَلى ذٰلِكَ. فَقَدْ أُعْجِبَتْ بِكَ دائِمًا واحْتَرَمَتْكَ واعْتَبَرَتْكَ أَخًا أَكْثَرَ مِنْ حَبيبٍ. وإذا أَخْطَأْتَ فَهْمَ صَداقَتِها فَهِيَ تَرى أَنَّ تِلْكَ هِيَ غَلْطَتُها.»

فَقالَ روبِرْت وقَدْ تَنَفَّسَ الصُّعَداءَ: «هٰذا يُريحُني فِعْلًا؛ الآنَ تَعْلَمينَ الأَسْوَأَ عَنّي. وعَلى كُلِّ حالٍ، لَقَدْ رَفَضَتْني بِازْدِراءٍ – أَعْتَقِدُ أَنّي أَصْبَحْتُ أَفْهَمُها الآنَ، فَهِيَ مُتَعَجْرِفَةٌ ومَزْهُوَّةٌ، ورُبَّما لَنْ تَتَزَوَّجَ أَبَدًا لِأَنَّها لا تَرْضى أَنْ يُشارِكَها أَيُّ رَجُلٍ في أَمْلاكِها وتَسَلُّطِها.»

قاطَعَتْهُ كارولين مُحْتَجَّةً: «لا يا روبِرْت إِنَّكَ مُخْطِئٌ تَمامًا. شيرلي قادِرَةٌ عَلى الحُبِّ، فَقَدْ باحَتْ لي بِأَحْلامِها وآمالِها.»

فَسَأَلَها روبِرْت مُنْدَهِشًا: «ماذا تَقولينَ؟ أَيُمْكِنُ أَنْ تُحِبَّ أَحَدًا؟ ومَنْ هُوَ ذٰلِكَ الرَّجُلُ الّذي اخْتارَتْهُ مِنْ بَيْنِ طالِبي يَدِها الكَثيرينَ؟ هَلْ هُوَ السّير نانِلي؟»

أَجابَتْ: «إذا أَخْبَرْتُكَ مَنْ هُوَ، فَعَلَيْكَ أَنْ تَكْتُمَ السِّرَّ حَتّى عَنْ أَخيكَ لويس.»



وبَعْدَ أَنْ وافَقَ عَلى طَلَبِها هَمَسَتِ السِّرَّ في أُذُنِهِ. فَبَدا مُنْدَهِشًا ثُمَّ ضَحِكَ بِهُدوءٍ وقالَ: «يا لَهُ مِنْ خَبَرٍ يُفْرِحُني؛ إذًا شيرلي قادِرَةٌ عَلى الحُبِّ رُغْمَ كُلِّ شَيْءٍ. أَتَساءَلُ كَيْفَ لَمْ يُؤَثِّرْ فِيَّ جَمالُها الفاتِنُ. رُبَّما كُنْتُ أَنا غَيْرَ قادِرٍ عَلى الحُبِّ!»

فَقالَتْ كارولين وهِيَ تَبْتَسِمُ: «حَسَنًا فَعَلْتَ! فَهٰذا أَحْسَنُ. عَلَيَّ أَنْ أَذْهَبَ الآنَ. طابَتْ لَيْلَتُكَ.»

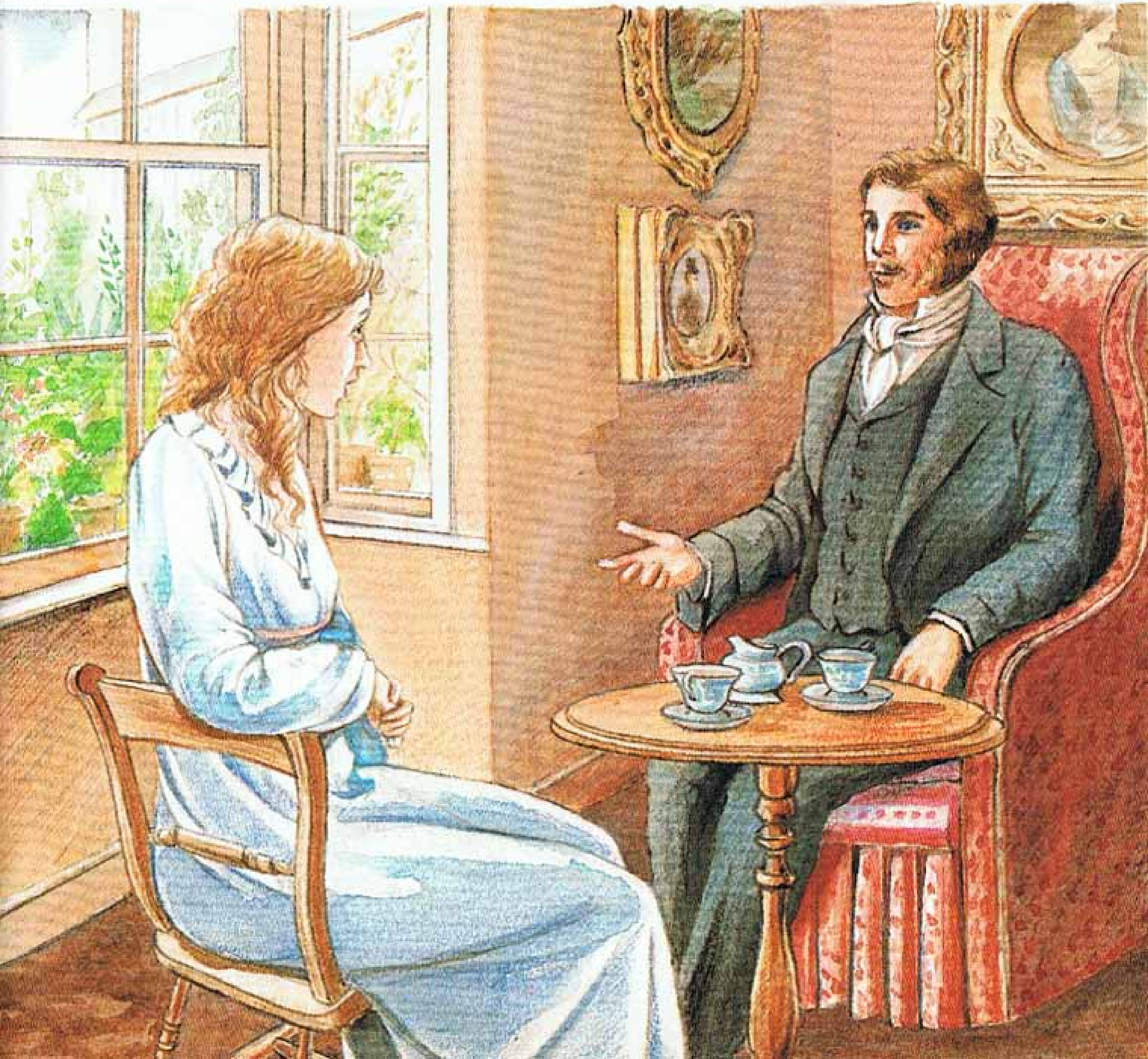
تَقَدَّمَ روبرْت نَحْوَها وهِيَ تَنْهَضُ لِلرَّحيلِ، وقالَ: «لِماذا تَذْهَبينَ كُلَّما احْتَجْتُ إلى وُجودِكِ بِقُرْبي يا كاري؟»

فَسَأَلَتْهُ مُداعِبَةً: «هَلْ لَدَيْكَ ما تَقولُهُ بَعْدُ؟»

فَأَجابَها: «نَعَمْ يا كاري. حافِظي عَلى حُبِّنا!»

قالَتْ: «لَطالَما فَعَلْتُ ذٰلِكَ، وَسَأَظَلُّ هٰكَذا إلى الأَبَدِ! كَيْفَ لَمْ تُلاحِظْ ذٰلِكَ بَعْدُ؟ طابَتْ لَيْلَتُكَ!»

أَمّا في فيلدهِد فَقَدْ قَرَّرَ السَّيِّدُ سِمْسون – بَعْدَ أَنْ فَكَّرَ مَلِيًّا – تَأْجيلَ رَحيلِهِ والبَقاءَ لِفَتْرَةٍ أُخْرى لَعَلَّهُ يُغَيِّرُ رَأْيَ ابْنَةِ أُخْتِهِ في الزَّواجِ، فَكانَتْ فَتْرَةُ هُدْنَةٍ يَسودُها جَوٌّ مِنَ التَّوَتُّرِ.



بَعْدَ ذٰلِكَ بِأَيّامٍ دارَ حَديثٌ صَريحٌ بَيْنَ لويس وشيرلي. قالَ لويس: «سَأُقَدِّمُ اسْتِقالَتي عِنْدَ مُغادَرَةِ عائِلَةِ سِمْسون هٰذا المَنْزِلَ. لَسْتُ مُسْتَعِدًّا لِتَحَمُّلِ المَزيدِ مِنَ الإهاناتِ عَلى يَدِ السَّيِّدِ سِمْسون، لَقَدْ تَحَمَّلْتُها سابِقًا مِنْ أَجْلِ هنري. وعِنْدَما سَأَتْرُكُهُمْ لا بُدَّ مِنْ أَنّني سَأَشْتاقُ إِلَيْهِ، غَيْرَ أَنَّنا سَنَبْقى عَلى اتِّصالٍ.»

فَقالَتْ شيرلي بِلَهْجَةٍ لا تَخْلو مِنَ الإعْجابِ: «أَنْتَ شَخْصٌ قَوِيٌّ وعَنيدٌ يا سَيِّدُ مور. لٰكِنْ ماذا سَتَفْعَلُ بَعْدَ أَنْ تَتْرُكَ عَمَلَكَ عِنْدَ السَّيِّدِ سِمْسون؟»

أَجابَ لويس: «سَوْفَ أُهاجِرُ إِلى كَنَدا. حانَ الوَقْتُ لِأَسْتَعيدَ حُرِّيَّتي، لَقَدْ ناهَزْتُ الثَّلاثينَ. وبَعْدَ سَنَواتِ العَذابِ والمَرارَةِ الَّتي عِشْتُها، كُلُّ ما أَبْغيهِ هُوَ الحُرِّيَّةُ والاسْتِقْلالُ.»

فَقالَتْ: «أَجَلْ، لَقَدِ اعْتَدْتَ عَلى العُزوبَةِ! إِلّا أَنَّكَ قَدْ تَتَغَيَّرُ إِذا حَظيتَ بِإِحْدى الأَرامِلِ الثَّرِيّاتِ!»

فَرَدَّ لويس مُحْتَجًّا: «لا، لَنْ أَتَزَوَّجَ أَبَدًا امْرَأَةً تَتَحَكَّمُ بي بِثَرْوَتِها!»

وعَلَّقَتْ شيرلي عَلى كَلامِهِ: «أَرى أَنَّكَ شَديدُ الغُرورِ!»

وأَقَرَّ لويس بِصِحَّةِ هٰذا الحُكْمِ قائِلاً: «هٰذا صَحيحٌ، إِنّي فَقيرٌ، ولٰكِنّي أَبِيٌّ أَعْرِفُ مَنْزِلَتي في المُجْتَمَعِ!»

فَهَتَفَتْ شيرلي: «وأَنا امْرَأَةٌ، وأَعْرِفُ أَيْضًا مَنْزِلَتي في المُجْتَمَعِ.»

وتَرَدَّدَ لويس هُنَيْهَةً لِأَنَّهُ أَيْقَنَ أَنَّ حَديثَهُما قَدْ أَصْبَحَ حَرِجًا، غَيْرَ أَنَّهُ أَرْدَفَ بِبُرودَةٍ: «أَظُنُّ أَنَّكِ مِثْلي لا تُفَكِّرينَ بِالزَّواجِ؛ فَقَدْ رَفَضْتِ، عَلى ما أَعْتَقِدُ، أَرْبَعَةَ طَلَباتِ زَواجٍ آخِرُها طَلَبُ السِّير فيليب نانِلي.»

فَسَأَلَتْهُ شيرلي هازِئَةً: «وهَلْ ظَنَنْتَ أَنّي سَأَقْبَلُ عَرْضَهُ؟ إِنَّهُ بِنَظَري في غايَةِ المُيوعَةِ، وأَنا أَحْتاجُ زَوْجًا قَوِيَّ الشَّخْصِيَّةِ يُرْشِدُني ويُوَجِّهُني.»

قالَ لويس: «أَجَلْ، إِنّي أَعْرِفُ ذٰلِكَ، أَنْتِ بِحاجَةٍ إِلى مُرَوِّضٍ قَوِيٍّ.»

فَسَأَلَتْهُ شيرلي بِشَيْءٍ مِنَ الغَيْظِ: «أَتَعْتَقِدُ أَنّي ما زِلْتُ أَحْتاجُ إِلى مُوَجِّهٍ ومُدَرِّسٍ؟»

ورَدَّ قائلًا: «الآنَ تَسْخَرينَ مِنْ مِهْنَتي.»

فَقالَتْ: «أَجَلْ وأَسْخَرُ مِنْ عُيوبِكَ الأُخْرى أَيْضًا.»

وسَأَلَها: «مِنْ فَقْري مَثَلًا؟»

فَأَجابَتْهُ: «هٰذا صَحيحٌ. لِأَنَّكَ لا تَقْبَلُ بِهِ بِكُلٍّ بَساطَةٍ، إِنَّكَ تُطيلُ التَّفْكيرَ بِالفَقْرِ لا بَلْ تَعْتَزُّ بِهِ.»

قالَ: «إِنّي – في الواقِعِ – لا أَمْلِكُ شَيْئًا أُقَدِّمُهُ لِأَيِّ امْرَأَةٍ سِوى شَخْصِيَّتي الصَّادِقَةِ.»

فَنَهَضَتْ شيرلي واتَّجَهَتْ إِلى البابِ. غَيْرَ أَنَّ لويس سَبَقَها إِلَيْهِ وقالَ بِعَزْمٍ: «لا يُمْكِنُكِ أَنْ تَخْرُجي قَبْلَ أَنْ نُنْهِيَ كَلامَنا.. لَمْ أَعُدْ أَسْتَطيعُ أَنْ أَضْبِطَ مَشاعِري!»

فَقالَتْ شيرلي وقَدْ صَدَمَها كَلامُهُ: «يا سَيِّدُ مور ماذا جَرى لَكَ؟ هٰذا لَيْسَ مِنْ طَبْعِكَ، ماذا تَعْني؟»

قالَ: «إِنَّكِ تَعْرِفينَ ما أَعْنيهِ بِالضَّبْطِ، إِنّي أَتَخَلّى عَنْ دَوْرِ المُدَرِّسِ المُرْشِدِ وأُقَدِّمُ لَكِ الإِنْسانَ المُحِبَّ.»

فَتَقَدَّمَتْ شيرلي نَحْوَهُ وأَعْطَتْهُ يَدَها. فَقالَ لويس ضاحِكًا: «ها هِيَ ذي تِلْميذَتي!»

فَأَجابَتْ شيرلي ضاحِكَةً: «يا مُعَلِّمي.»

عِنْدَئِذٍ أَفْضى لَها لويس بِسَريرَةِ نَفْسِهِ قائِلًا: «يا عَزيزَتي شيرلي إِنّي أَهيمُ بِكِ مُنْذُ أَرْبَعِ سَنَواتٍ. أَنا أُحِبُّكِ بِكُلِّ كِياني وبِكُلِّ قُوايَ! ها قَدْ أَفْلَتَتْ مِنّي الحَقيقَةُ أَخيرًا! لَنْ أَفْقِدَكِ أَبَدًا! هَلْ تُوافِقينَ عَلى الزَّواجِ مِنّي؟!»

سَأَلَتْهُ شيرلي: «هَلْ أَصْبَحْنا مُتَساوِيَيْنِ أَخيرًا؟»

فَقالَ: «المُهِمُّ أَنْ يَقْبَلَ كُلٌّ مِنّا الآخَرَ كَما هُوَ. فَأَنْتِ لي دائِمًا.»

قالَتْ: «يا عَزيزي لويس، لا حاجَةَ إِلى أَنْ أَبوحَ لَكَ بِحُبّي، فَكُلُّ ما أُريدُ أَنْ أَقولَهُ هُوَ أَنَّ الحَياةَ لا تَعْني لي شَيْئًا ما لَمْ أَقْضِها بِجانِبِكَ. لٰكِنّي أَطْلُبُ مِنْكَ شَيْئًا واحِدًا: عَلَيْكَ أَنْ تَعِدَني بِأَنَّكَ لَنْ تَذْكُرَ أَبَدًا المالَ أَوِ المِلْكَ أَوِ الفَقْرَ أَوْ عَدَمَ المُساواةِ؛ كُنْ رَفيقي في دَرْبِ الحَياةِ وابْقَ سَيِّدي المُحِبَّ – هٰذا كُلُّ شَيْءٍ!».

عِنْدَما عَلِمَ السَّيِّدُ سِمْسون أَنَّ شيرلي قَبِلَتِ الزَّواجَ مِنْ لويس مور جُنَّ جُنونُهُ، وأهانَ لويس بِحُضورِ شيرلي. أَمّا لويس فَقَدْ فَقَدَ صَبْرَهُ وهَجَمَ عَلى السَّيِّدِ سِمْسون وأَمْسَكَهُ مِنْ عُنُقِهِ وأَخَذَهُ عُنْوَةً إلى غُرْفَةِ المَكْتَبَةِ، ثُمَّ قالَ لَهُ بِصَوْتٍ حادٍّ: «لَمْ أَعُدْ خادِمَكَ يا سَيِّدُ سِمْسون. عَلَيْكَ أَنْ تَتْرُكَ فيلدهِد في الحالِ؛ يُؤْسِفُني فِقْدانُ هنري لٰكِنّي أَعْلَمُ أَنّي سَأَراهُ مِنْ جَديدٍ. وأُحَذِّرُكَ مِنَ التَّدَخُّلِ بِشُؤونِ مَنْ سَتُصْبِحُ زَوْجَتي.»

وبَعْدَ أَنْ تَفَوَّهَ بِهٰذا التَّهْديدِ الأَخيرِ أَغْلَقَ بابَ المَكْتَبَةِ بِعُنْفٍ في وَجْهِ السَّيِّدِ سِمْسون. وهٰكَذا أَخْرَجَهُ مِنْ حَياتِهِما نِهائِيًّا. أَمّا شيرلي فَباتَتْ عاجِزَةً عَنِ الكَلامِ مِنْ شِدَّةِ إعْجابِها بِتَصَرُّفِ لويس الجَريءِ الّذي عَبَّرَ عَنْ سُلْطَةٍ ما بَعْدَها سُلْطَةٌ.





وبَيْنَما كانَت هٰذِهِ الأَحْداثُ المَحَلِّيَّةُ المُثيرَةُ تَأْخُذُ مَجْراها في يُورْكْشِر ذٰلِكَ الصَّيْف، أَخَذَتْ مَسيرَةُ التّاريخِ تَتَبَدَّلُ في الخارِجِ آتِيَةً بِتَغْييراتٍ جَديدَةٍ إلى سُكّانِ إنكلترا. فَفي إسْپانيا أَحْكَمَ جَيْشُ وِلنغْتون سَيْطَرَتَهُ على نابوليون وهُزِمَ الفَرَنْسِيّونَ في بَداخُس ويمْپلونه ثُمَّ في سَلَمَنْقَه. بَعْدَ ذٰلِكَ رَفَعَتِ الحُكومَةُ البَريطانِيَّةُ الحِصارَ، فَرَحَّبَتِ المَرافِئُ الأوروبِيَّةُ بِالتَّبادُلِ التِّجارِيِّ مِنْ جَديدٍ. فَعَمَّ الفَرَحُ التُّجّارَ والصِّناعِيِّينَ في يُورْكْشِر ولانكْشِر لِبُزوغِ فَجْرٍ جَديدٍ مِنَ الازْدِهارِ، وتَطَلَّعَ العُمّالُ بِأَمَلٍ إلى مُسْتَقْبَلٍ يُبَشِّرُ بِالبُحْبوحَةِ.

كانَتْ كارولين في حَديقَةِ بَيْتِ عَمِّها القِسّيس تَسْقي الأَزْهارَ حينَما شَعَرَتْ بِذِراعٍ تُطَوِّقُ خَصْرَها، فَالْتَفَتَتْ إلى الوَراءِ وفُوجِئَتْ بِرُؤْيَةِ روبرْت واقِفًا بِقُرْبِها.

فَقالَتْ لَهُ: «كُنْتُ بِانْتِظارِكَ، أَيْنَ كُنْتَ؟»

أَجابَ: «في فيلدهِد حَيْثُ قُمْتُ بِزِيارَةِ الحَبيبَيْنِ شيرلي ولويس. لَمْ تَتَصَرَّفْ شيرلي بِهٰذا الشَّكْلِ مِنْ قَبْلُ: لَقَدْ وَضَعَتْ أَمْلاكَها تَحْتَ إِمْرَةِ لويس، وهِيَ تَرْفُضُ أَنْ تَتَّخِذَ بِنَفْسِها أَيَّ قَرارٍ بِشَأْنِها مِنَ الآنَ فَصاعِدًا. إِنَّني لَأَتَساءَلُ كَيْفَ سَيُدَبِّرُ لويس أُمورَ العَمَلِ.»

قالَتْ كارولين: «لا تَقْلَقْ.. يَبْدو أَنَّهُما مُتَناغِمانِ. إِنّي أَعْتَقِدُ – وإِنْ بَدا ذٰلِكَ غَريبًا – أَنَّ غَرائِبَ تَصَرُّفاتِ شيرلي هٰذِهِ تُنَمّي حُبَّ لويس لَها؛ وهُوَ الوَحيدُ القادِرُ عَلى فَهْمِها وإِرْضائِها.»

وبَلَغَ مَسْمَعَهُما قَرْعُ الأَجْراسِ ابْتِهاجًا في جَميعِ القُرى. فَسَأَلَها روبرْت: «لِماذا تُقْرَعُ الأَجْراسُ؟» قالَتْ: «لَقَدْ صَدَرَ عَنِ المَجْلِسِ قَرارٌ بِإِلْغاءِ التَّدابيرِ الاقْتِصادِيَّةِ السّابِقَةِ. ذٰلِكَ يَعْني أَنَّ الازْدِهارَ سَيَعودُ إلى البِلادِ.»

فقالَ روبرْت: «أَجَلْ. لا أَتَصَوَّرُ أَنّي كُنْتُ عَلى وَشْكِ أَنْ أَحْزِمَ حَقائِبي لِأُسافِرَ بَحْرًا إلى كَنَدا هَرَبًا مِنَ الإِفْلاسِ المُحْدِقِ بي، وسَعْيًا وَراءَ جَمْعِ المالِ، رُبَّما بِرِفْقَةِ لويس.»

صاحَتْ كارولين: «ماذا تَقولُ؟؟ أَكُنْتَ عَلى اسْتِعْدادٍ لِلتَّخَلّي عَنّي أَنا؟» وتَشَبَّثَتْ بِذِراعِهِ كَأَنَّها تَتَأَكَّدُ مِنْ وُجودِهِ بِقُرْبِها.

فَأَجابَها روبرْت مُبْتَسِمًا: «في الماضي القَريبِ نَعَمْ. لٰكِنْ لَيْسَ الآنَ. فَقَدْ أَنْقَذَتْني نِهايَةُ الحِصارِ، لَنْ أُفْلِسَ بَعْدَ الآنَ، بَلْ سَأَتَمَكَّنُ مِنْ تَسْديدِ دُيوني بِكامِلِها. سَتُباعُ الأَقْمِشَةُ المَخْزونَةُ في المَصْنَعِ ويَزْدادُ الطَّلَبُ. وهٰذا ما سَيُؤَهِّلُني لِاسْتِخْدامِ المَزيدِ مِنَ العُمّالِ وتَرْكيبِ آلاتٍ حَديثَةٍ وتَحْسينِ الأُجورِ. الآنَ أَصْبَحَ بِوُسْعي أَنْ أَقومَ بِإِنْجازٍ رائِعٍ، وأَنْ أَسْتَقِرَّ هُنا.» وتَوَقَّفَ قَليلاً عَنِ الكَلامِ وقَدْ أَثارَتْهُ هٰذِهِ التَّطَلُّعاتُ المُشْرِقَةُ إلى المُسْتَقْبَلِ. ثُمَّ أَرْدَفَ بِصَوْتٍ خافِتٍ: «وأَخيرًا أَسْتَطيعُ البَحْثَ عَنْ زَوْجَةٍ تُناسِبُني!»

ولَمْ تَنْبِسْ كارولين بِبِنْتِ شَفَةٍ، فتابَعَ روبرْت قائلًا: «هَلْ يُمْكِنُكِ نِسْيانُ الآلامِ التي سَبَّبْتُها لَكِ؟ هَلْ يُمْكِنُكِ أَنْ تُسامِحيني عَلى أَطْماعي العَمْياء وسوءِ تَفَهُّمي لِمَشاعِرِكِ النَّبيلَةِ؟ سَأُبَرْهِنُ لَكِ عَنْ إخْلاصي وحُبّي العَميقِ.»

أجابَتْهُ كارولين بِلَمْسَةٍ رَقيقَةٍ مِنْ يَدِها، وقَدْ تَنازَعَها الفَرَحُ والرَّغْبَةُ في البُكاءِ.

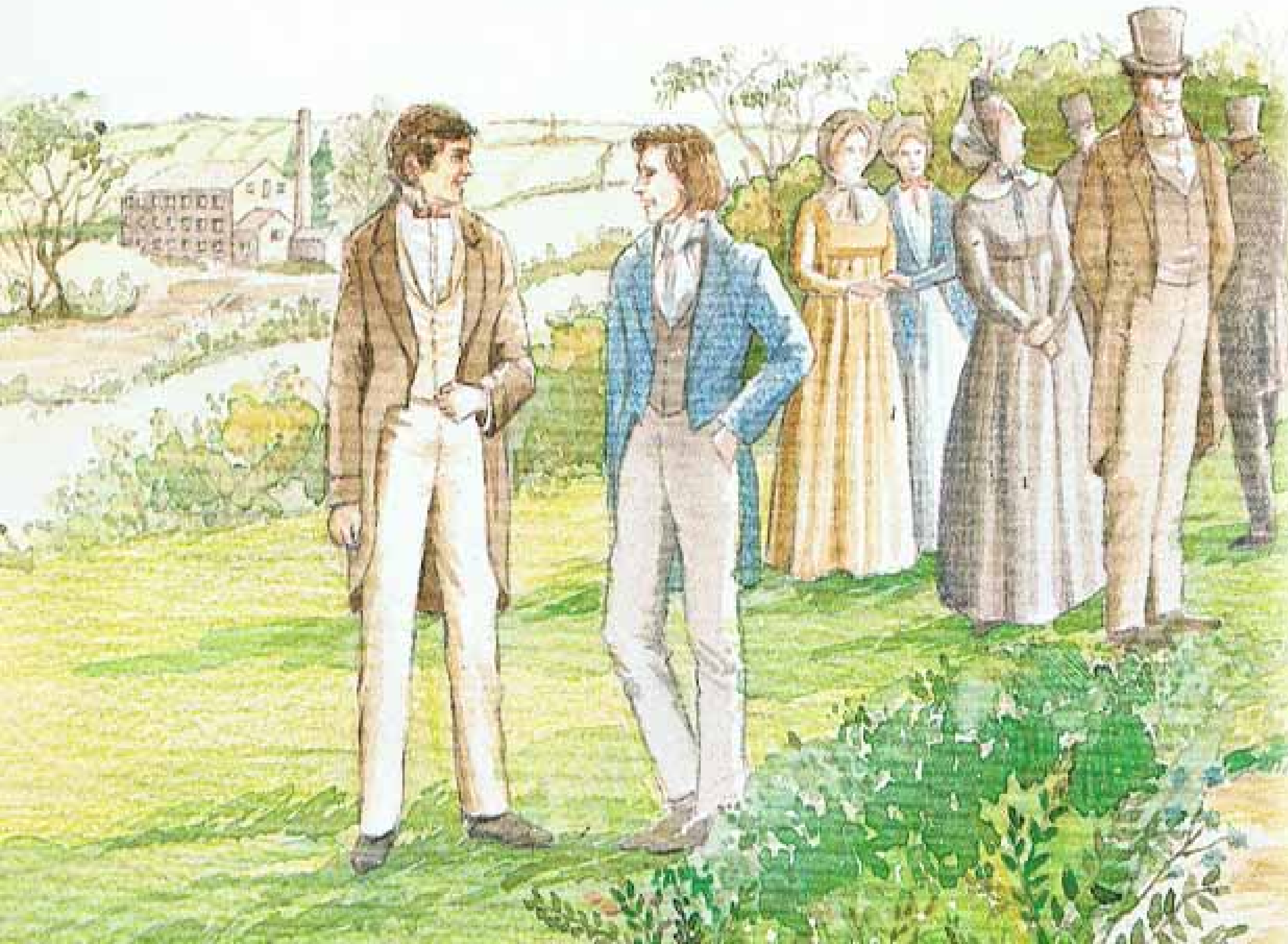
وسَأَلَها: «هَلْ كارولين هِيَ لي الآنَ؟»

فَأَتى جوابُها: «كارولين لَكَ أَنْتَ وَحْدَكَ يا روبرْت! أَنْتَ حُبّي الوَحيدُ، فما أَحْبَبْتُ غَيْرَكَ قَطُّ. أَعِدُكَ بِأَنّي سَأُكَرِّسُ حَياتي لَكَ – وأَعْلَمُ أَنَّ أُمّي سَتُبارِكُ زَواجَنا بِابْتِهاجٍ.»

وفي شَهْرِ آبٍ (أغسطس) قُرِعَتِ الأَجْراسُ مَرَّةً أُخْرى ابْتِهاجًا بِانْتِصاراتِ وِلِنْغْتون الجَديدةِ عَلى نابوليون. وتَزامَنَ ذٰلِكَ مَعَ فَرْحَةِ عَقْدِ زِفافَيْنِ. وأَضْفَتِ الزّينَةُ مَظْهَرَ البَهْجَةِ عَلى أَبْرَشِيَّةِ برايرفيلد، وأُقيمَتِ الاحْتِفالاتُ في فيلدهِد ومَصْنَعِ هولو.

في ذٰلِكَ اليَوْمِ، شَهِدَتْ كَنيسَةُ برايرفيلد حَفْلَتَيْ زِفافٍ: زَواجُ لويس جيرارْد مور مِن شيرلي ابْنَةِ تشارلْز كيلْدار مالِكِ فيلدهِد الرّاحِلِ؛ وزَواجُ روبرْت جيرارْد مور، صاحِبِ مَصْنَعِ هولو مِنْ كارولين هلْستون ابْنَةِ أَخي الكاهِنِ متيوس هلْستون، راعي برايرفيلد.

أَجْرى مَراسِمَ الزَّواجِ الأَوَّلِ السَّيِّدُ هلْستون وقَدْ قادَ السَّيِّدُ حيرام يورْك العَروسَ إلى خَطيبِها. وقامَ بِمَراسِمِ الزَّواجِ الثّاني السَّيِّدُ هُول قِسّيسُ نانلي. وبَيْنَ مُرافِقي العَريسَيْنِ كانَ الإشْبينانِ الشّابّانِ السَّيِّدُ هنري سِمْسون والسَّيِّدُ مارْتن يورْك، فَالاثْنانِ قَدْ لَعِبا دَوْرًا هامًّا – وإنْ كانَ صَغيرًا – في إتْمامِ الزَّواجَيْنِ.



حَدَثَتْ في المِنْطَقَةِ تَطَوُّراتٌ هامَّةٌ خِلالَ السَّنَواتِ القَليلَةِ الَّتي تَلَتْ. وفي مَصْنَعِ هولو تَحَقَّقَ حُلْمُ روبِرْت مور أَخيرًا فَتَجَسَّدَ حِجارَةً وحَديدًا. غَيْرَ أَنَّ هَواجِسَ كارولين بِشَأْنِ تَشْويهِ الطَّبيعَةِ لَمْ تُبَرَّرْ قَطُّ، لِأَنَّ أَرْضَ يُورْكْشِر الشّاسِعَةَ كانَتْ كافِيَةً لِاسْتيعابِ هٰذِهِ المُسْتَجِدّاتِ الصِّناعِيَّةِ، ولَمْ يُقْتَلَعْ مِنَ الأَشْجارِ شَيْءٌ يُذْكَرُ ولَمْ يَتَلَوَّثِ الهَواءُ. وارْتَفَعَ مَكانَ المَصْنَعِ القَديمِ مَصْنَعٌ جَديدٌ ضَخْمٌ تَتَطاوَلُ مَدْخَنَتُهُ نَحْوَ السَّماءِ، وحَلَّتِ الطُّرُقاتُ العامَّةُ مَكانَ الأَزِقَّةِ الَّتي كانَتْ تَتَجَمَّعُ فيها المِياهُ والأَوْحالُ. وبَنَى العُمّالُ أَنْفُسُهُمْ أَكْواخًا أَنيقَةً وتَمَّ تَشْييدُ مَدْرَسَةٍ جَديدَةٍ وَفَّرَ المَصْنَعُ مُرَتَّباتِ مُعَلِّميها، وتَمَّ إِنْشاءُ نادٍ وحَديقَةٍ عامَّةٍ ومَلْعَبٍ لِلأَطْفالِ، مِمّا أَضْفَى على تِلْكَ المِنْطَقَةِ صِبْغَةً حَضارِيَّةً لَمْ تَتَحَلَّ بِها مِنْ قَبْلُ، وسادَ شُعورٌ جَديدٌ مِنَ الوَعْيِ الاجْتِماعِيِّ. وعَبَّرَ ضَجيجُ الآلاتِ في المَصْنَعِ عَنِ الازْدِهارِ الَّذي نَعِمَتْ بِهِ المِنْطَقَةُ، نَتيجَةً لِازْدِيادِ الطَّلَبِ العالَمِيِّ على نَسيجِ يُورْكْشِر الجَيِّدِ بِالإِضافَةِ إِلى نَشاطِ روبِرْت مور وجُرْأَتِهِ في الْتِزامِ المَشاريعِ الكَبيرَةِ. وسَرْعانَ ما نَمَتِ القُوَّةُ العامِلَةُ وتَكاثَرَتْ أَنْواعُ الصِّناعاتِ الَّتي كانَتْ تُمَوِّنُ المَصْنَعَ.

ومَعَ كُلِّ ذٰلِكَ، ظَلَّتْ مُروجُ المِنْطَقَةِ تُهَيْمِنُ على المَشْهَدِ غَيْرَ مُكْتَرِثَةٍ بِالأَبْنِيَةِ الصَّغيرَةِ الَّتي تُقامُ وَسَطَها، وظَلَّ خَريرُ الجَداوِلِ في قَعْرِ الأَوْدِيَةِ يُرَدِّدُ صَدى أَلْحانِ الطَّبيعَةِ الصّافِيَةِ.





شارْلوت برونْتي

وُلِدَتْ شارْلوت برونْتي سَنَةَ ١٨١٦ في يُورْكْشِر. والِدُها پاتريك برونْتي، قِسّيسٌ إيرلَنْدِيُّ الأَصْلِ، ووالِدَتُها إنْكليزِيَّةٌ مِنْ كورنْوُول. كانَتْ شارْلوت الثّالِثَةَ بَيْنَ خَمْسِ بَناتٍ وَصَبِيٍّ واحِدٍ. وإثْرَ وَفاةِ والِدَيْها سَنَةَ ١٨٢١ انْتَقَلَتِ العائِلَةُ إلى هاورْث حَيْثُ عُيِّنَ الوالِدُ كاهِنًا لِتِلْكَ القَرْيَةِ المُحاطَةِ بِالتِّلالِ والمُروجِ.

طابَ العَيْشُ في المَنْزِلِ المُعَدِّ لِعائِلَةِ برونْتي إلاّ أَنَّهُ كانَ مُعْتِمًا ومُشْرِفًا على مَدافِنِ القَرْيَةِ. ولَمّا أَصْبَحَتْ شارْلوت في الثّامِنَةِ مِنْ عُمْرِها غادَرَتْ وأُخْتَها الصُّغْرى إميلي البَيْتَ لِتَلْتَحِقا بِمَدْرَسَةِ كُوان بريدج. كانَتِ الحَياةُ المَدْرَسِيَّةُ هُناكَ في غايَةِ القَساوَةِ، وعِنْدَما تُوُفِّيَتْ شَقيقَتا شارْلوت الكُبْرَيَيْنِ إثْرَ إصابَتِهِما بِداءِ السُّلِّ، أُرْسِلَتْ شارْلوت وإميلي إلى مَنْزِلِهِما. ومِنْ تِلْكَ المَدْرَسَةِ اسْتَوْحَتْ شارْلوت صورَةَ المَدْرَسَةِ القاتِمَةَ في رِوايَةِ «جين إير».

في غِيابِ الأُمِّ أُطْلِقَ لِلأَوْلادِ الأَرْبَعَةِ الباقينَ العِنانُ، فَراحَتْ شارْلوت – وهِيَ أَكْبَرُهُمْ– وإخْوَتُها برانْوِل وإميلي وآن يَجولونَ في الأَراضي المُوحِشَةِ المُجاوِرَةِ لِمَنْزِلِهِمْ ويَخْتَلِقونَ مَمالِكَ

خَيالِيَّةً ويَحوكونَ القِصَصَ حَوْلَ شُعوبِ تِلْكَ المَمالِكِ. فَكانَ لِتِلْكَ البيئَةِ تَأْثيرٌ عَميقٌ عَلى حَياةِ كُلٍّ أَبْناء برونْتي وعلى مُؤَلَّفاتِهِمْ.

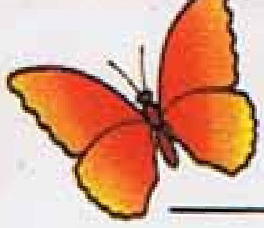
عَمِلَتْ شارْلوت في صِباها كَمُرَبِّيَةٍ، لٰكِنَّها وَجَدَتْ هٰذِهِ المِهْنَةَ مُضْنِيَةً ومَليئَةً بِالمِحَنِ. وهٰذا ما حَدا بِالأَخَواتِ الثَّلاثِ إِلى التَّفْكيرِ بِتَأْسيسِ مَدْرَسَتِهِنَّ الخاصَّةِ. فَذَهَبَتْ شارْلوت وإميلي إِلى بروكْسِل حَيْثُ مارَسَتا مِهْنَةَ التَّعْليمِ وحاوَلَتا تَحْسينَ مُسْتَواهُما في اللُّغَةِ الفَرَنْسِيَّةِ. وهُناكَ مَرَّتْ شارْلوت بِتَجْرِبَةٍ مُرَّةٍ، فَقَدْ وَقَعَتْ في حُبِّ زَوْجِ صاحِبَةِ المَدْرَسَةِ.

لَمْ يَتَحَقَّقْ مَشْروعُ الأَخَواتِ الثَّلاثِ في تَأْسيسِ مَدْرَسَةٍ. غَيْرَ أَنَّهُنَّ واظَبْنَ عَلى التَّأْليفِ، وأَصْدَرْنَ مَجْموعَةَ قَصائِدَ. وفي سَنَةِ ١٨٤٦ تَمَكَّنَتْ آن وإميلي مِنْ نَشْرِ بَعْضِ أَعْمالِهِما. أَمّا شارْلوت فانْتَظَرَتْ سَنَةً أُخْرى قَبْلَ أَنْ تَنْشُرَ رِوايَتَها «جين إير» وتَنالَ نَجاحًا فَوْرِيًّا.

إِلّا أَنَّ الحُزْنَ طَغَى عَلى السَّنَتَيْنِ اللَّتينِ تَبِعَتا هٰذا الحَدَثَ - فَقَدْ تُوُفِّيَ برانْوِل وإميلي وآن بِداءِ السُّلِّ. أَمّا شارْلوت فَواظَبَتْ عَلى الكِتابَةِ ونَشْرِ الرِّواياتِ - ومِنْ بَيْنِها «شيرلي» (١٨٤٨) - ونالَتْ مَكانَةً مَرْموقَةً في الأَوْساطِ الأَدَبِيَّةِ في العَصْرِ الفِكْتورِيِّ. وفي سَنَةِ ١٨٥٤ تَزَوَّجَتْ مِنْ نيقولا بِلْ مُساعِدِ أَبيها الكاهِنِ، لٰكِنَّها تُوُفِّيَتْ بَعْدَ مُرورِ بِضْعَةِ أَشْهُرٍ عَلى زَواجِها، وهِيَ في الثّامِنَةِ والثَّلاثينَ.



كتب الفراشة - القصص العالميّة

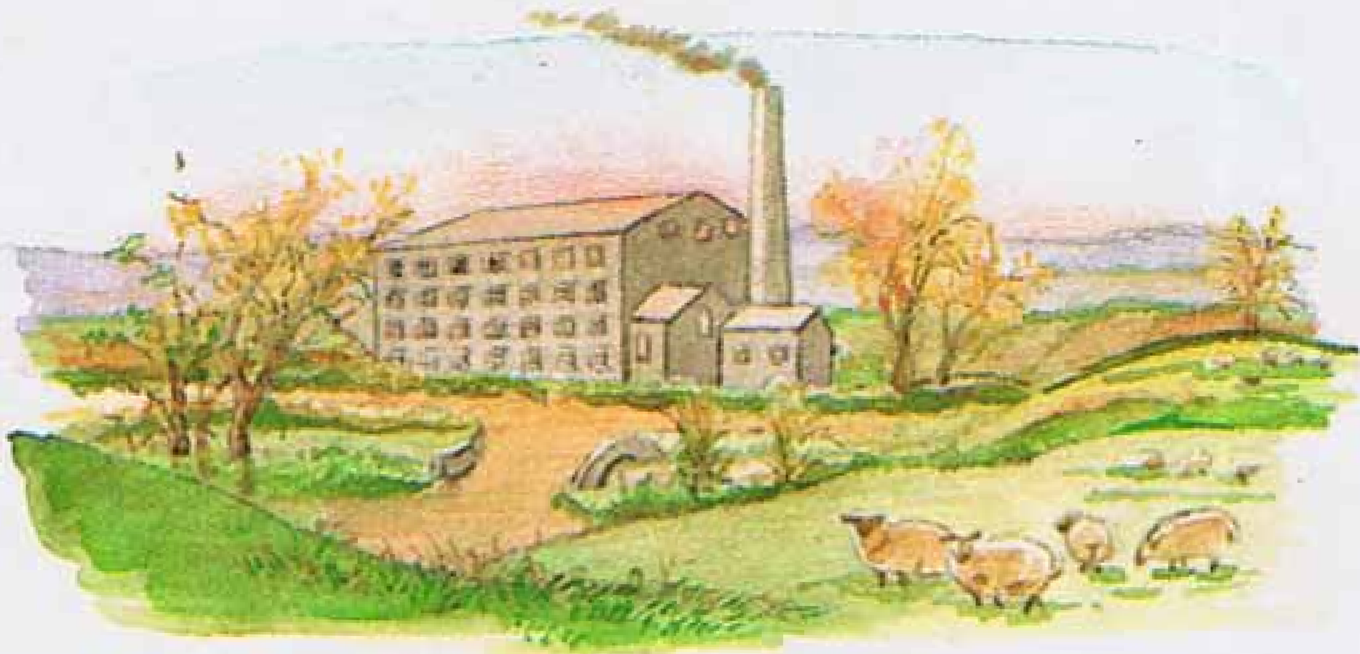


كتب الفراشة

القصص العالميّة ١٧. شيرلي

روايةٌ «شيرلي» لِشارْلوت برونْتي تُصوِّر الحَياةَ والكَوْنَ صِراعًا مُتَواصِلاً على كُلِّ الصُّعُد، كَصِراعِ الإنْسان مَعَ نَفْسه لِمَعرِفة حَقيقة ما يُريد، ومُقاوَمتِه لِلعادات والتَّقاليد الضّاغِطة، ومُحاوَلتِه التَّغَلُّبَ على الأَوْضاع السِّياسِيَّة والاقْتِصاديّة الّتي تُؤَثِّر على شُؤون حَياته. وهُناك صِراعٌ بينَ فِئات البَشَر الّذينَ تَتَضارَب مَصالِحُهم، بِالإضافة إلى التَّجاذُب القائِم بينَ الطَّبيعة وضَرورات التَّصْنيع والعُمْران الّتي تَبتَلِعُ مَعالِمَها وتُشَوِّهُها.

لٰكِنَّ الرِّواية تَنْتَهي إلى أَنَّ مَسيرة الحَياة تَقْتَضي التَّعقُّلَ والتَّوْفيقَ بينَ هٰذِهِ القُوى المُتَصارِعة.



مكتبة لبنان ناشرون

